

قال إبراهيم بن المدبر في الرسالة العذراء:

((فإن أردت خوض بحار البلاغة، وطلبت أدوات الفصاحة، فتصفح من رسائل المتقدمين ما تعتمد عليه، ومن رسائل المتأخرين ما ترجع إليه، ومن نوادر كلام الناس ما تستعين به، ومن الأشعار والأخبار والسير والأسمار ما يتسع به منطقك، ويعذب به لسانك، ويطول به قلمك، وانظر في كتب المقامات والخطب ومحاورات العرب)).

المقامة

شكل أدبي نثري عربي، ازدهر في عصر كان فيه للأدب قيمة وكان للأدب فرسانه وأبطاله، واحتل هذا اللون وقت انتشاره مكانة طيبة، لا تقل عن تلك التي احتلها الشعر في البيئة العربية.

وامتد تأثير المقامة في العصور التالية، وتعددت أشكال التأثير، من مرحلة إلى أخرى، ومن بيئة إلى بيئة، ومن أديب إلى أديب.

ولعل هذا الامتداد والإشعاع هو الذي رفع بعض الباحثين والدارسين في العصر الحديث إلى إطلاق صفات جديدة عليها، وإلى المغالاة في رد بعض الأشكال الأدبية الحديثة إليها، بل إن منهم من جعلها مسؤولة عن وجود فني الرواية والقصة القصيرة في أدبنا العربي الحديث والمعاصر.

ومـــع أن الشعر العربي قد حظي بعدد كـــبير من الدراسات والمؤلفات، بينما لم تحظ المقامة إلا ببعض الدراسات النادرة، فضلاً عن أن الكثيرين من مثقفينا في مجتمعنا العربي لا يعرفون عن هذا اللون الأدبي شيئاً (ماهيته – رواده – خصائصــه الأدبية والفنية – الموقف الــنقدي الحديــث مما قد يثار حوله من قضايا ومناقشات) وهذا ما سنحاول تبسيطه في بحثنا هذا...

ما هي المقامة..؟؟

الأصــل الــلغوي لكلمة مقامة هو دار الندوة أو الندى، وهو المكان الذي يجتمع فيه أبـناء القبيـلة للتشــاور والسمر، ثم أصبحت الكــلمة تــدل على الاجتماع نفسه، أي مجلس القبيلة وناديها، وقد ظل هذا المفهوم سائداً منذ العصــر الجاهلي حتى العصر الإسلامي، يؤكد هــذا مــا أورده القلقشــندي في كتابه –صبح الأعشى – يقول:

"المقامــات هي جمع مقامة وهي في أصل اللغة اسم للمجلس والجماعة من الناس، وسميت الأحدوثة من الكلام مقامة، كأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها.

فهــناك حديث مرسل، يقوم به شخص واحــد، ويستمع إليه الباقون، ويتناول الحديث إخباراً بحدث، أو حكاية عن شخصية، أو نادرة مــن النوادر، لغته عربية فصحى، سليمة من حيــث البناء والتركيب، لدرجة تذهل السامعين وتدهشهم.

ومع تطور الحياة العربية بعد الإسلام، غــلب الــزهد على البعض ونزع بعض الحكام عن الحق، فاتصل بعض هؤلاء الزهاد بالحكام عــن طــريق الــوزراء وقــاموا بوعظهــم، واســتعملوا لغــة الحديث القديم، وأضافوا ما اقتبســوه من القرآن والحديث والشعر العربي ومن جوامع الكلم والحكمة.

ويوجد نماذج من هذه المقامات في – عيــون الأخــبار – لابن قتيبة الدينوري، حيث أورد بعضــاً من هذه المقامات مثل مقام صالح بــن عبد الجليل بين يدي المهدي، ومقام رجل من الزهاد بين يدي المنصور...

ولئن كانت هذه المقامات الوعظية ترد فــي ثنايا الكتب، فإنها استقلت فيما بعد بكتاب كــامل، كما فعل الزمخشري حين ألف مقاماته ومعظمهــا فــي الــزهد، واستعمل المحسنات اللفظية المشتملة على نسبة كبيرة من الغريب في جمل مرصوفة مسجوعة.

وما لبثت المقامة أن انتقلت من حيث هــي – موقف وعظي خطابي – يقفه شخص واعــظ بيــن يــدي حــاكم، إلى حيث هي – محاضــرة – تلقى لتؤدي وظيفة تعليمية بحتة، وقــد اســتهدفت تعليم اللغة والنحو والصرف والأدب والشــعر، فــلم يعد الوعظ هو غايتها، فضــمت المجــاميع من أساليب اللغة العربية المــنمقة، تفيد طالبي اللغة ودارسيها ليقتدروا على صناعتها، وليتفوقوا في كتابتهم الأدبية.

ميزات المقامة ..

عرفنا أن المقامة أخذت شكلاً آخر، فلزاماً علينا أن نتحدث عن شكلها الجديد وعما وصلت إليه، ومتى، وعلى يد من ..؟ وعن الظروف التي أحاطت بها في مرحلتها الأخيرة..

أهم ما يميز المقامة في طورها الجديد، هو أنها تدور حول مغامرات، يقوم بها بطل واحد، يقوم بحيلة تنطلي على الناس، ليصل إلى ما يقصده، وإلى جانب البطل الواحد في كل هذه المغامرات يقف – راوية – ينقل لنا أخبار هذه المغامرات، والراوي والبطل يتكرران في كل مقامة، وهما الرابط الوحيد بين المقامات كلها.

ونرى أن بطل المقامات له صفتان لازمتان وهما:

الأولى: إنه صعلوك جوّال، متسول، ماكر، مستهتر.. يحتال للحصول على المال ممن يخدعهم، وهو رجل يحكم الاحتيال والخداع والتمويه.

الثانية: أنه أديب بليغ حاضر البديهة، يرتجل الكلام المطابق لمقتضى الحال، منثورا أو منظوماً.. يهتم بالنكتة المستملحة ويستشهد بالقرآن والحديث وبالحكم والأمثال والأشعار، إنه نموذج للأديب البائس الذي يسعى لتحصيل الرزق بالأدب والشعر.

والمناخ العام سمح للمقامات أن تدور وقتها حول الكدية والاستجداء، وذلك لكثرة العوز من الناس عامة ومن أهل الأدب والشعر خاصة فالعصر وقتها زاد الغني غنا وزاد الفقير فقراً، فيظهر البطل في المقامة في شكل أديب شحاذ، يجلب الجماهير ببيانه العذب، ويحتال بهذا البيان على استخراج الدراهم من جيوبهم، وهو يتراءى بهذه الصورة في بلدان مختلفة، وقد ساعدته التربة الأدبية، فإنها كانت مهيأة لتغذية هذا النوع الجديد، من حيث هو شكل أدبي، مناسب لما كان سائداً من ألوان وأساليب أدبية، فقد كانت منتشرة كتب السيرة مثل سيرة عنترة، وسيرة ابن طولون، وكتاب – المكافأة – الذي كتبه المصري أحمد بن يوسف قبل سنة – ٣٤٠ للهجرة – وجمع فيه أخبار اللصوص في مصر وبين أنهم كريموا الطباع، وروى عنهم أكثر من سبعين حكاية، ولا شك أن المقامة استفادت من كل هذا، الجدل الذي يدور بين الراوي وبين البطل هو مناظرة، وكذلك المناقشات التي كانت تجري بين البطل وبين من يصادفهم حول عدة مسائل...

وترى أن كتاب الجاحظ – حيل المكدين – قد مهد بشكل أو بآخر لظهور المقامة، فحديث خالد بن يزيد إلى ابنه عند الجاحظ، نجد صداه في وصية أبي الفتح الإسكندري لابنه في مقامات الهمذاني...

في هذا العصر وهذا المناخ استطاعت المقامة أن تتنفس، وأن تصبح لها شخصيتها الفنية المتفردة، بل غدت فن العصر، فقد بلغت بالنثر الفني قمة الإحكام، بمثل ما عبَّرت عن ذوق العصر الذي شهد مولدها، ذلك أن كتاب ذلك الحين، كانوا قد اتجهوا إلى التكثيف في

فنون البديع المختلفة، بل إلى الإمعان فيها والجري وراءها، والاحتفال بالجناس والطباق والموازنة والتورية، كما حمَّل الكُتَّاب النثر ما كان خاصاً بالشعر.

بدايات المقامة ومسيرتها وامتداداتها.

يجمع الباحثون على أن بديع الزمان الهمذاني هو الذي أصَّل هذا اللون الأدبي، وهو أول من أعطى كلمة – مقامة – معناها الاصطلاحي بين أدباء عصره.

كان أديباً مثقفاً ثقافة موسوعية شاملة ملك ناصية اللغة وعرف أسرارها ومشاكلها وأصولها وفهم حركة التاريخ العربي وجغرافية العلم العربي وكان ملماً بالتراث الشعري والعلوم الدينية وكان مطلعاً على أيام العرب فأراد أن يتفوق على أقرانه من كتاب الدواوين وأراد أن يتميز عن سواه بشيء يجعله مشهوراً به فأنشأ المقامات، وكان يختم بها دروسه على الطلاب، وغلب على أسلوبه السجع ولا يتركه إلا نادراً وجعل الراوي واحداً لا يتغير وكذلك البطل الذي أظهره أديباً شحاذا.ونرى أن مقاماته تدور حول عقدة لغوية، ومسألة أدبية أو حيلة بيانية، وهذا هو السر في توفر المحاكاة اللفظية، والألغاز اللغوية، والأسلوب المتكلف الزاخر بالزركشة والحلى التي لا تعود على المعنى بطائل يذكر.

والدارس لمقاماته يلاحظ أنه يحشو أساليبه بالألفاظ الغريبة مثل المقامة القردية والموصلية.

وبعد الهمذاني بنحو قرن جاء أبو محمد القاسم بن علي الحريري ولد ٤٤٦هـ من المشان وهي من ضواحي البصرة، وكتب وأبدع خمسين مقامة، ولا يختلف عن الهمذاني في جعل الأسلوب غاية، وفي العناية باللفظ لا بالمعنى وجعل راويه واحداً وكذلك البطل، ولكنه تفوق على بديع الزمان الهمذاني في الألغاز والألاعيب والعقد البلاغية، وامتاز بكونه ناظماً للشعر الذي جاء في مقاماته إلاَّ أربعة أبيات استشهد بها وهي لغيره، وبقيت مقامات الهمذاني والحريري متداولة تداولا واسعاً، وطبعتا كثيراً وقلدها الكثير ونالت من الشروح الكثير على مر العصور.

وجاء الحسن بن صافي المصري الملقب بملك النحاة، وكتب مقاماته على نسق الحريري.

وكذلك ألف ابن الجوزي خمسين مقامة في موضوعات مختلفة ولكن تكثر فيها الخطب والأصول النحوية والنكت الفقهية.

وفي المغرب كتب الوهراني (المقامات الوهرانية) وخفف فيها من الإغراب والتعقيد اللغوي ولم يكثر فيها من الألاعيب البيانية والعقد الأدبية، إنما أراد تصوير بعض جوانب الحياة الفكرية والاجتماعية في عصر من عصور التحول في المجتمع العربي، وهو عصر الانتقال من الدولة الفاطمية في مصر إلى الدولة الأيوبية.

وكذلك اقتفى أثر الحريري وحاكاه محاكاة تامة وكاملة، ناصيف اليازجي في الشام توفي ١٨٧١م، فأصدر عام ١٨٥٦م

(مجمع البحرين) في ستين مقامة، وأحمد فارس الشدياق توفي ١٨٨٧م ، كان أكثر تطوراً من اليازجي في مقاماته الساق على الساق، فيما هو الفارياق التي صدرت ١٨٥٥، فقد عالج في مقاماته الأربع قضايا الزواج والعزوبية في إطار بيوغرافي، منتقداً المجتمع الشرقي انتقاداً لا ذعاً، ومع ذلك بقي محافظاً على بعض عناصر المقامة. من سجع وكلمات غريبة وإن استعمل السرد والوصف والحوار.

وفي مصر كان للمقامة العربية وجود مباشر ومؤثر، وحاول البعض تطويرها وإخفاء بعض ملامح القصة عليها، وعلى سبيل المثال فإنّا نلاحظ أن أسواق الذهب للشاعر أحمد شوقي جاء نسخة مطابقة لمقامات الحريري، إذ قلدها تقليداً يكاد يكون حرفياً، فلم يدخل أي شيء يمد إلى العصر الحديث بصلة، وكذلك الحال بالنسبة إلى (علم الدين) التي كتبها علي مبارك ١٨٨٣م. وجاء مثالاً ساذجاً لاستعمال فن المقامة كوسيلة لتعليم أبناء شعبه وتثقيفهم.

أما إبراهيم المويلحي فقد بدأ ينشر في سنة ١٨٩٩م في صحيفة مصباح الشرق حديثاً أسماه حديث موسى بن عصام متأثراً بأسلوب المقامة العربية إلى حد كبير، فاعتنى بالسجع والتشبيهات والاستعارات والكنايات، ووضع الحشو المليء بالحكم والمواعظ والأمثال فأراد أن يقترب من المقامة ويبتعد عن الفنون الأدبية الحديثة.

وجاء ابنه محمد المويلحي فكتب حديث عيسى بن هشام، وأتمه في حين أن والده لم يكتمل حديثه، وأعانته الصحافة في جعل كل مقامة من مقاماته مستقلة، عما قبلها وعما بعدها، وقد أثار حديثه جدلاً طويلاً بين النقاد والدارسين، فمنهم من اعتبره (رواية) بالمعنى الحديث للرواية كشكل أدبي وضعه الغربيون في القرن الثامن عشر الميلادي، ورأى البعض أن المويلحي طور المقامة.

أما (ليالي سطيح) لحافظ إبراهيم نراه قد قلد المقامة العربية بكلي حذافيرها، وكذلك عبد الله فكري ففي مقامته اتبع الأسلوب القديم، ولكنه قصد منها الإرشاد والعبرة والتأديب، وغلب عليها أسلوب الاستطراد.

وجاء صالح مجدي ونشر اثنتي عشر مقالة سماها (المقالات الأدبية) في مجلة روضة المدارس التي أصدرها رفاعة رافع الطهطاوي، حذا فيها حذو المقامة العربية في إطارها العام، وفي طريقة نسجها.

وكان هدفه (الجزاء من جنس العمل) قال عن مقالاته عبد العزيز الدسوقي إنها المقامة الأقصوصة.

وجاء أديب الشعب بيرم التونسي فتدارك المقامة وهي في رمقها الأخير، وعالجها معالجة الطبيب الذي يعرف مكمن العلة، فابتعد عن قيود الزخارف اللفظية الثقيلة، وقربها إلى رجل الشارع، لم يقلد الحريري ولا غيره، فقد وضع يده من أول لحظة على العلاقة بين الأدب والواقع، بين الأديب ومجتمعه، فابتكر أسلوباً ساخراً، وربط بين المقامة وبين الحياة.

اتسمت مقاماته بالقصر، وهي أقرب إلى أن تكون وجهة نظر محددة في أمور الدنيا والحياة والناس، ويبدو بيرم التونسي في كل

مقامة، متناولاً موضوعاً مستقلاً انتخبه انتخاباً من الواقع الاجتماعي، ومن حياة الجماهير.

وكذلك جاء الطبيب عبد السلام العجيلي ووضع المقامات الطبية، بلغة عصرية يفهمها كل من يقرؤها وقد عالج بها بعض المشكلات الاجتماعية.

قضايا حول فن المقامة.

المقامة العربية عند الباحثين والنقاد أثارت بعض المسائل النقدية، فبعضهم قال إنها قصة قصيرة، والبعض قال إنها هيأت لفن الرواية أو القصة بمعناها العام، والآخرون قالوا إنها أقرب إلى المسرحية منها إلى أي لون أدبي آخر، في الوقت الذي أجمع فيه كل النقاد أن المقامة نوعاً أدبياً عربياً أبدعته قريحة الكتاب العرب في القديم.

ومن هذه الآراء:

- د. شكري عياد في كتابه (القصة القصيرة في مصر) يرى أن المقامة وبغير حرج يمكننا أن نسميها قصة قصيرة.

- د. الطاهر مكي في كتابه القصة القصيرة (دراسة ومختارات) يقول المقامة شبه قصة قصيرة.

- د. عبد العزيز الدسوقي في كتابه (روضة المدارس) يسرف في الادعاء بأن مقامات صالح مجدي تعتبر بكل المعايير الفنية والفكرية ريادة حقيقية لفن الأقصوصة في لغتنا العربية، وفي مكان آخر يقول لا تقترب من الأقصوصة بالمعنى الفني لهذا المصطلح، وفي مكان آخر يقول إنها أقرب إلى المقامة والمقامة منها إلى الأقصوصة، ثم يقول "المقامة الأقصوصة" فهو يتخبط ولم يكشف للقارئ عن مفهومه للأقصوصة ومتى تكون الأقصوصة مكتملة البناء من الناحية الفنية، وما هي ملامح أحدث أشكال الأقصوصة، ولا ندري ما يقصده بحكاية المقامة الأقصوصة، فهي إما أن تكون مقامة وإما أن تكون أقصوصة.

- يرى محمد تيمور أنه ليس للمقامات أي قيمة قصصية وإن كانت كتابتها وضعت في القالب القصصي، لأنها خلت من أهم مميزات القصة وهو الحادثة.

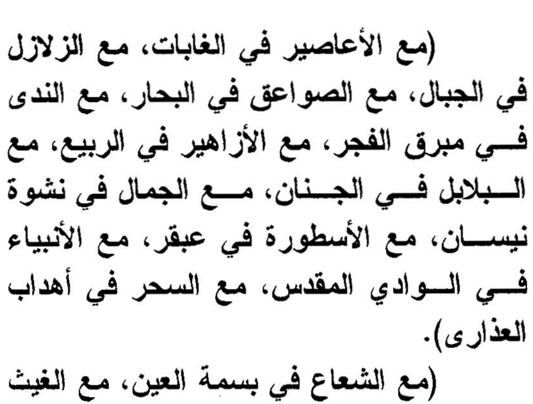
- د. يوسف الشاردني يذهب إلى أن كتاب المقامات فكروا في خلق قصة عربية والواقع أن هذا لم يخطر لهم على بال وهو رأي د. شوقي ضيف، وكلاهما يرى أن المقامة أضرت ظهور القصة العربية بالمعنى الفني الحديث.

- يرى د.عبد الرحمن ياغي في كتابه (رأي في المقامات) من أن المقامات يوجد بها عنصر درامي، ولهذا فإنه يرى أن فن المقامة إلى المسرحية أقرب منه إلى القصة، وهو رأي لا يستند إلى أدلة دامغة، ولا يجد ما يبرره أو يدعمه.

ونتيجة لكل ما تقدم نقول: المقامة مقامة، وهي فن مستقل خاص، له ذاتيته، وله أصوله وقواعده الفنية، كان نتاج مرحلة تاريخية وحضارية معينة، ومن ثم فإنه كان تعبيراً عنها، واستجابة لذوق المتلقين حينئذ، وعلى هذا الأساس ينبغي فهمه، ودراسته، والحكم عليه.

الشاعر القروي وقصة عودته للوطن ١٨٨٧-١٩٨٤

بقلم:
أ. عيسى فتوح



(مع الأعاصير في الغابات، مع الزلازل في الجبال، مع الصواعق في البحار، مع الندى في مبرق الفجر، مع الأزاهير في الربيع، مع البلابل في الجنان، مع الجمال في نشوة نيسان، مع الأسطورة في عبقر، مع الأنبياء في الوادي المقدس، مع السحر في أهداب العذارى).

(مع الشعاع في بسمة العين، مع الغيث في زحمة اليأس، مع الصولجان في صولة العرش، مع الصفح يوم الدينونة، مع القيثارة في الليل المدلهم العبوس الشموس، مع الأحلام في غمرة الكفاح الصدّاح، والشوك الدامي النياح..مع الشلال في الينبوع الزاخر، مع الخمرة في أنفاس الورد، مع الوجدان في صرخة الحق، مع الزأرة في رهبة الظلم والطغيان، مع النغم في حفيف الأفانين، وشدو الجداول، وانتفاضة البحر، وحنين النسمات).

(مع الدمع الأخرس اللاهب في غصة اليتم، وزفرة المنكوب، وعثرة الكريم، وكربة المظلوم، وحسرة القلب الأبكم... مع أمّته في شروقها وغروبها، ومدها وجزرها، وخصبها وجدبها، وخمرها وخلّها... ولدَ الشاعر القروي.. إنه لم يولد في "البربارة" بل ارتدى هناك قميصه الترابي، فانتسب إليها)

هكذا شاء الأديب المهجري الكبير نظير زيتون أن تكون ولادة القروي. أما هو فقد شاءها على نمط آخر في مقدمة ديوانه الضخم المطبوع في البرازيل عام ١٩٥٢ باسم "ديوان القروي" وقد ضمّ سبعة دواوين هي: البواكير، الأعاصير، الزمازم، المحافل والمجالس، زوايا الشباب، الموجات القصيرة، الأزاهير.

رأى القروي أن يدوّن سيرة حياته بقلمه، خوفاً من أن (ينفسح مجال النقد

والتشريح، والظن والتأويل، وتتعثر الأقلام بين الحقائق والأوهام، وليس أعرف بنفسه منه..)

سرد القروي سيرة حياته في منتهى البساطة والسهولة، فكان صريحاً إلى حد أنه وضع المفاتيح في يد الدارس أو الناقد، وأسلم له قلبه ليدخله من يشاء دون استئذان، فتحدث في المقدمة عن مولده ونسبه وأخوته ومسقط رأسه، وظروف تكوينه، وولادته، وطفولته، وتعلّمه، وتعليمه، وأوصافه، وعاهاته، وحياته اليومية، ومعارفه، وصفاته، وإيمانه، وتديّنه، وتعبّده، وتسليمه، وحبه، ولماذا آثر عدم الزواج. وتحدث عن شغفه بالطبيعة، وشعوره الوطني، وأصدقائه، وأعدائه، واقتصادياته، وكيف ينظم الشعر.

وعن رأيه في الشعر، ولماذا غلبت الحماسة على شعره، ولماذا هاجر وغلب اليأس عليه، وكيف ودّع لبنان، ثم عن الأزمات المادية التي ألّمت به، مما اضطره إلى بيع عوده، وإعطاء دروس خاصة في العزف على العود، وموقف خصومه منه بسبب عقيدته، مما سندرسه فيما بعد، وعن فشله في أعماله التجارية، وبخاصة عندما افتتح معملاً لصنع "الأرب" ربطات العنق.

ثم ينهي الصفحات الأخيرة من مقدمة ديوانه بالحديث عن أثر الأديبة نظيرة زين الدين فيه وفي شعره القومي، وعن التعصب الوطني، وعن العروبة والبرامج والأحزاب، والعروبة والأنظمة، وأخيراً عن لغة العروبة التي يختمها بنداء موجَّه إلى الفتيان العرب فيه من تضليل بعض قادتهم العمه كما يقول.

قليلون جداً أولئك الذين دونوا سيرَ حياتهم بهذه البساطة والعفوية، ومع ذلك اشترطوا ألا تنشر إلا بعد مماتهم. أما القروي فقد أذاعها على الملأ عام ١٩٥٢، وتركها تتردد على أفواه الناس ومسامعهم، وهو ما يزال يحيا بينهم، لا يخشى في الحق لومة لائم.. إنه صاحب عقيدة التزم بها منذ فجر شبابه، حتى آخر حياته، لم يحد عنها قيد شعرة بالرغم مما امتحن به، وبالرغم من الحفر التي زرعها مرضى النفوس في دربه ليوقعوا به، فخرج منها ظافراً منتصراً.

ولد القروي ليلة عيد الفصح في السابع عشر من نيسان عام ١٨٨٧ وهذا اليوم يصادف عيد الجلاء في سورية، وقد فاخر بهذا اليوم الأغر بقوله:

إنْ فاخر الناسُ بأعيادهم
فعيدُ ميلادي عيدُ الجلاء

أمّه تقلا بنت أسعد بشارة الرحباني، وأبوه سليم بن طنوس بن منصور، بن حنا الخوري. نزح جده أسعد، وأخوه مشرق بعائلتيهما من "الشوير" إلى "البربارة" واشتغلا بالحدادة. وكان أخواله ستة من أفتى الشباب، ماتوا في ميعة الشباب ولم يعرف منهم غير أكبرهم بشارة، وأصغرهم الياس الذي امتاز بجمال صوته. ومن هنا نمسك بأوّل خيط من صفات القروي، فقد ورث الفتوة عن أخواله، والعزيمة عن جده الذي امتهن حرفة الحدادة، وهي حرفة تتطلب زنوداً قوية، وعضلات مفتولة، كما أنها تكسب صاحبها في الوقت نفسه، صلابةً وبأساً وشدة، وهل ثمة أصلب وأشد ممن يصارع الفولاذ والحديد..؟

أمّا رخامة الصوت فقد ورثها عن خاله الياس الرحباني – وأسرة الرحباني أسرة الفن العريق والإبداع الفريد – وامتدت حتى شملت أخته فيكتوريا، وأخاه فؤاد الذي كان الناس يؤمون بيته من مسافة يومين ويلتمسون إيقاظه من نومه ليسمعوا إنشاده، وأخاه نديم الذي امتاز بقوته البدنية، وصوته

الجميـل، وأختـه دعد التي كانت هي الأخرى رخيمة الصوت ميالة إلى الموسيقى.

كان جده طنوس طبيباً بالممارسة، نقل بخطه عدة كتب عن ابن سينا، وجلّدها بيده وأضاف إليها كل ما وقع عليه من مستحدثات الطب، وأجرى بعض العمليات الجراحية البسيطة.

أما أبوه سليم فقد أخذ عن والده مبادئ القراءة، ثم درس في مدرسة "عبيه" الأميركية، فالكلية السورية الإنجيلية ببيروت - الجامعة الأميركية اليوم -ثم علم مدة في طرابلس وعكار وصافيتا، واحترف بعد زواجه تجارة التبغ والحرير، فأصاب ثروة معتدلة، وخلف جده في مشيخة القرية التي عرضت على رشيد فيما بعد، فأباها، كما نظم والده الشعر وكتب النثر.

ولد القروي في البربارة، وهي قرية تقع على هضبة مشرفة على البحر الأبيض المتوسط، بين مدينتي جبيل والبترون، وقد عرف أهلها بالقوّة البدنية ورخامة الصوت، لا يكاد يشذ منهم في الثانية أحد. أما بيته الحالي فيقع على الطريق العام بين طرابلس وبيروت قرب مفرق البربارة، لا شيء يحجبه عن البحر المترامي أمامه، ينتصب وحيداً فريداً، وقد جرّ إليه الماء والكهرباء بعد أن بقي زمناً محروماً منهما. وقد روى لي أنه اختار هذا الموقع بالذات لأنه يضمّ أنقاض بيت جده القديم، وقد تهدّم كلياً بعد سفر العائلة إلى المهجر.

دراسته

تتلمذ القروي على معلمه الشاعر وحيد الغرزوزي في قريته، ثم تعاقب عليه عدة معلمين كان آخرهم إيليا نصار الذي آنس منه - وهو في العاشرة - رغبة في مطالعة المجلات العلمية والأدبية.

فأخذ يعنى به، ويوفر له المجلات، ويكتب له الخطب والأشعار، ويمرنّه على إلقائها، فيستظهرها ويؤديها بمنتهى البراعة والجودة.

وعندما ناهز الثانية عشرة قصد مدرسة الفنون الأمريكية في (صيدا) فدرس فيها سنتين كاملتين، أما الثالثة فكانت في مدرسة (سوق الغرب) ثم انقطع سنة واحدة للتدريس في مدرسة (انفه). وبعدما استأنف الدراسة في الكلية السورية الإنجيلية حيث نال شهادتها الاستعدادية (البكالوريا)، ثم انصرف للتعليم كلياً سبع سنوات متوالية في مدرستي (طرابلس والمينا) الأمريكيتين، فمدرسة (بشمزين) الوطنية، فالكلية الشرقية في (زحلة) فمدرسة الإنكليز في (الشوير) وأخيراً مدرسة الأمريكان في (سوق الغرب) وما كان تنقله إلا اختياراً منه لأفضل الشروط التي تعرض عليه من مختلف المدارس في العطلة الصيفية.

هجرته

تحدثنا في السابق عن الهجرة التي عمت لبنان وسورية وعن أسبابها، وقلنا اقتلعت المواطنين اقتلاعاً دونما رغبة منهم في القليل النادر، ولكن (مكره أخاك لا بطل) كما يقول المثل العربي القديم. والقروي كان شديد التعلق بوطنه، مستهاماً به، يحبه حباً يكاد يكون تقديساً وعبادة.وقد ظل متعلقاً به حتى آخر لحظة وضع رجله فيها على درجات سلّم الباخرة.

وحكاية هجرته تتلخص في أن جرائد بيروت نشرت له على عهد المتصرف التركي يوسف فرنكو باشا بعض قصائده الوطنية الثائرة، فما إن قرأها عمّه اسكندر، وهو قبطان في الجيش البرازيلي، يعشق الشعر الحماسي، حتى شرع يرغّبه في السفر إليه، واستمر يلحّ بضع سنوات، والقروي يتردد في هجر وطنه الذي تيّمه حبه منذ حداثته كما يقول ويسأل العارفين: (هل في البرازيل جبال جميلة كجبال لبنان، وسماء نقيّة كسمائه)، حتى وضعه عمه تحت الأمر الواقع بإرساله إليه خمسين ليرة إنكليزية ليسافر بها في الدرجة الأولى، وكان والده قد توفي سنة ١٩١٠ مبدداً ثروته قروضاً لم يستوف منها قرشاً، لا بل ترك على القروي ديوناً لا يمكن إيفاؤها من مرتب التعليم الضئيل. لذلك عزم على الهجرة، وهو يمني نفسه بالعودة حالما يجني ما يكفي لتبرئة ذمة والده.

أبحر من بيروت في أوّل آب سنة ١٩١٣ فوصل أواخر أيلول إلى مدينة (مريانا) من أعمال ولاية (ميناس) في البرازيل، حيث كان يقيم عمه وعائلته، فأقام عنده سنة يزاول تجارة (الكشة) جاب خلالها أنحاء الولاية، متعرضاً لأقسى مشقات الحرّ والسيول الطامية، وكان كلما هدَّه التعب، وبلله الغيث المدرار رفع بصره إلى السماء عمداً ليملأ فمه بالمطر الدافق، وراح يغني (العتابا) و(الميجنا) وسط الغابات المخيفة.

لقد جدّ القروي مع أخيه قيصر (الشاعر المدني) الذي لحق به فيما بعد لكي يفيا ديون والدهما، وما هي إلا سنة واحدة حتى نشبت الحرب العالمية الأولى، وانقطعت كل صلة بالوطن والأهل، فقرّر القروي أن يغادر مدينة (مريانا) التي صك عبيدها مسمعية من تكرير لفظة (توركو) يعيرونه ويرشقونه بها كحجارة المنجنيق صباح مساء.

زنوج أمّيون حفاة نصف عراة، وهو بينهم الشاعر المرهف الحسّ المثقف النظيف الثوب واللسان... وهكذا لملم نثار ثيابه، وتأبط عوده الحبيب، رفيقه في الحلّ والترحال - هذا العود الذي قصد الشام خصيصاً ليشتريه قبيل سفره - واتجه إلى مدينة (ريو ده جانيرو) وفي جيبه عشرون ليرة برازيلية فقط.

اشتدت أزمة الحرب، وضاق خناقها عليه اشتداداً هائلاً، فأغلقت متاجر العاصمة الكبرى أبوابها، وسرّحت عمالها، وانتشرت البطالة، فظل أشهراً بطولها يسعى جاهداً لتأمين أي مورد رزق يسدّ به رمقه قبل نفاذ ليراته العشرين، ولكن عبثاً ... إلى أن قيض الله له أخيراً أحد هواة العود، فطفق يعلمه العزف، بعد أن قبضَ أجره الكامل سلفاً. ثم تكاثروا عليه، إلى أن تعاقد مع جمعية (زهرة الإحسان الخيرية) فعلَّم في مدرستها سنة واحدة. وفي سنة ١٩١٥ انتقل إلى (سان باولو) أو (صنبول) كما يسميها، وعمل أول وصوله بالتعليم في مدارس عربية، ومدارس أجنبية، وإعطاء دروس خاصة في المنازل، ثم تحوّل عن هذا كله إلى التجوال في الولايات معتمداً لبعض المحلات التجارية.

ولما توفيت زوجة أخيه قيصر في سان باولو عام ١٩٢٣ عن عدّة أطفال رغبت أمه (أم رشيد) في السفر إلى البرازيل لتعنى بالعائلة، فأرسل لها بعض المال لتوافيه مع أخته. ثم ما لبث اخوته أن لحقوا به مع عائلاتهم واحداً تلو الآخر، وخلوا الديار تبكي من بناها.

ويبدو أن هذه الهجرة الجماعية للعائلة قد قصت جناحيه، وأوهت أمله بالرجوع

والتئام الشمل في الوطن، فراح يعيش في بحران من الوساوس والقلق والاضطراب الفكري والمادي، إلا أنه تأبى على هذه المنغصات كلها، وفكر جدياً بالعودة النهائية للوطن، بعد أن أدّى ما عليه من تبعات كانت تبهظه، وتهدّ كاهله، وله في (بربارته) بيت قديم ومزرعة غنية بكروم العنب والتين واللوز والزيتون والتوت، وأرض بور صالحة للزراعة.. ثم لا بأس أن يفكر بالزواج بعد هذه السنين، ويخلد إلى الاستقرار في أجمل أقطار الدنيا، وأحبها إلى قلبه لبنان، إلا أن أمنياته العذاب لم تُدْرك، وتبخرت كسحابة صيف عابرة، مخلفة في نفسه الحرقة والمرارة.

إنّ الأديب والشاعر بنوعٍ خاص، قلما يستطيع أن يغدو تاجراً ناجحاً، فكيف إذا كانت تشغله شتى المهام..؟ والدليل أنّ شاعرنا استطاع بجهده أن يوفر ثلاث مئة ليرة برازيلية فاشترى بها قطعة أرض، وما عتم أن باعها بألف وخمسمائة ليرة بعد حضور والدته وشقيقته، واستأجر بثمنها بيتاً ليجعله مصنعاً للأرب (ربطات العنق) ولكنه اضطر إلى إقفاله بعد ثلاث سنوات بخسارة نصف رأس ماله، إلا أنه ربح اسماً تجارياً من أشرف الأسماء في جميع المتاجر والمصارف التي تعامل معها.. وسبب إخفاقه يعود إلى عوامل عديدة في طليعتها إحسان الظن ببعض عملائه، وانشغاله بالقضايا الوطنية عن مصلحته الخاصة.

وقد ذكر الأستاذ أكرم زعيتر، أثناء رحلة الوفد العربي إلى أميركا اللاتينية في سبيل نصرة فلسطين، أن الياس عاصي حدّثه عن القروي قائلاً:

"كان حين يتطوّع بالطواف على القرى والأقاليم النائية لجمع الإعانات للقضايا العربية، يستصحب معه جوارب لبيعها في الحين ذاته، ولينفق من ربحها على أجور رحلته، مؤثراً هذا على أن ينفق من الأموال العامة شيئاً"

بقي القروي على هذه الحالة حتى سنة ١٩٥٨ حينما فكرت حكومة الجمهورية العربية المتحدة بإقليميها مصر وسورية، بدعوته إلى الوطن بعد هذه الغربة المديدة، وتكريمه نظراً لخدمته قضايا الأمة العربية في المهجر، وتطوعه للدفاع عنها بلسانه وقلمه. وفعلاً وصل إلى مرفأ اللاذقية في الثالث من آب على ظهر الباخرة (محمد علي). فخف لاستقباله وفد رسمي مؤلف من: الدكتور أمجد الطرابلسي، وفؤاد الشايب، ومنصور الأطرش. وما إن وصلوا اللاذقية حتى استقلوا زورقاً راح يمخر العباب باتجاه الباخرة الراسية في عرض البحر، وقد احتشد على شرفتها ركابها، وبحارتها يتوسطهم الشاعر القروي بقامته الفارعة النحيلة، وشعره الأبيض المهيب، ملوّحين بأيديهم، بينما كان الزورق يقترب على مهل ليقف حذاء سلَّم الباخرة. وما كاد الوفد يجتمع بالقروي، حتى راح يحدّثه عن توقُّف الباخرة في مرفأ بيروت، وكيف صمدَ في وجه رجال الأمن اللبنانيين، الذين حاولوا عبثاً إقناعه بالترول إلى البرّ، لكنه رفض بإصرار، فخيَّروه بين قبول الدعوة أو الترول بالقوّة، فأجابهم أنه يختار القوَّة، ولما اشتدّ الجدال واحتدم التراع، تحلَّق حوله ركاب الباخرة وبحارتها هاتفين:

"لن تنزلوه إلا على أجسادنا"

وقد أشار إلى هذه الحادثة في قصيدته التي حيّا بها الشام عندما وطئت قدماه أرضها بقوله:

يـــا يـــوم جـدّد فـــيّ الخضــرُ آيتهُ

لمـــا أطـــلَّتْ عـــلى بيروتَ أعلامي

والوحـــشُ منفغر الشدقين يرصدني

والـــبغيُ أســـطوله خـــلفي وقدّامي

أعـــدى عـــليَّ بظهـــر الفلك شرذمة

ممـــن تضـــرّوا عـــلى فـــتكٍ وإجرام

لـــم يجدهـــمْ طول إغرائي بصحبتهمْ

فحـــاولوا حيـــنَ عيلَ الصبرُ إرغامي

همُّـــوا بـــأخذي فـــثارتْ كلّ محصنةٍ

وكـــلُّ حـــرٍّ عـــريض الصدر همهام

فأدبـــر الـــبغيُ مدحـــوراً وعدتُ إلى

ســـربي وقـــلتُ لهـــا يا مقلتي نامي

وبـــتُّ ليـــلي وعيـــنُ الله تحرســـني

حـــتى وضـــعتُ بأغلى التربِ أقدامي

كـــان فـــي برنـامج الاستقبال أن يبيت القـــروي ليلـــته الأولى فـــي مصيف (صلنفه) القريب من اللاذقية.

وفي أصيل اليوم التالي هبطت السيارة بالقروي ومستقبليه من صلنفه في طريقها إلى دمشق وسط بحار من الخضرة المترامية على جانـــبي الطـــريق، بيـــنما راحت عينا القروي تجولان في الجمال العبقري، وفمه يردد:

"أي أمنية تبقى للإنسان إذا أُتيح له أن يعيش في هذه الجنة..؟ أما أنا فما أسعدني إذا قـــدر لـــي أن أقضـــي هـــنا بقية عمري، إنني سأمضي كل صباح إلى هذه الأحراج وبصحبتي كـــتاب ودفـــتر وقـــلم، وزجاجة ماء، وبعض الفواكه، وقليل من الخبز، فلا أعود إلى غرفتي حتى المساء"

توقفت السيارة أكثر من مرّة في بعض الطريق لإصلاح خلل في محركها أو عجلاتها، فـــلم يصـــل الوفـــد إلى دمشق حتى الخامسة صباحاً، وخلال هذه التوقفات عنَّ للدكتور أمجد الطرابلسي أن يداعب شاعرنا بقوله:

"ربمـــا اضطررنا إلى قضاء الليلة هنا فما رأيك؟"

فأجاب على الفور: "بشرط أن تسمحوا لي بافتراش الأرض طوال الليل، وفمي إلى هذا التراب"

مـــا إن وصل القروي إلى دمشق حتى تهافتت عليه الوفود الأدبية والرسمية مسلّمة، محيية فيـــه بطـــلاً جباراً من أبطال القومية العـــربية التي نذر لها كل جهده وماله، وعاش عـــلى هواهـــا، متيماً بها، لا يخشى في الدفاع عـــنها لومـــة لائم، وقد لاقي، نتيجة هذا الحب والتكريس والتقديس كثيراً من العنت والتصدي والخصام، إذ حاول نفرٌ ممن في قلوبهم مرض أن يتعرضوا له بالأذى، ويقطعوا عليه السبل، إلا أنـــه خرج من كل هذه الأشراك التي نصبت له ظافراً، منتصراً، رافع الرأس، عالي الجبين. لقـــد كرمته سورية فمنحته مرتباً شهرياً دائماً قـــدره ألـــف ليرة سورية مدى الحياة، إلا أنه رفـــض قبض هذا المرتب بعد نكسة الانفصال مباشرة، فبقيت هذه المبالغ مجمدة باسمه حتى عـــام ١٩٧٠، إذ دعـــاهُ اتحـــاد الكتاب العرب لـــزيارة ســـورية، بعـــد عودتـــه الأخيرة من الـــبرازيل، وكـــرّمه، وأطـــلعه عـــلى منجزات الـــثورة، وفي نهاية الزيارة قبض المبالغ التي تبرع بخمسة آلاف ليرة منها للعمل الفدائي.

كما أن وزارة الثقافة والإرشاد القومي أصدرت عنه كراساً يومذاك، اشترك في أبحاثه كل من:

الدكتور جميل صليبا، الأستاذ عارف النكدي، الدكتور شكري فيصل والشاعر أنور العطار، تحت عنوان:

(العروبة تكرّم الشاعر القروي)

وقد ردّ الشاعر على المحتفين به بقصيدة رائعة جداً، تناقلتها الصحف والإذاعات والمجلات العربية ببالغ التقدير والإعجاب، شكر فيهاسورية لاستقدامها إياه من مهجره السحيق بعد غربة استمرت خمسة وأربعين عاماً، يقول فيها:

حتام تحسبها أضغاث أحلام
سبّحْ لربكَ وانحرْ أنتَ في الشام
يا آلَ جلّقَ يا أزكى الأصول إذ
باهى السراةُ بأصلابٍ وأرحام
حسبي بكم شرفاً أني على ضَعَتي
كأنّ كلّ ملوكِ الأرض خدّامي
أعيتْ بياني وشكراني عوارفكم
يا أكرمَ الناس بالغتمْ بإكرامي
كم لائم لامني في حبّكم سفهاً
فبدّل القربُ حساداً بلوّامِ
لبّيت بالفرحِ المجنونِ دعوتكمْ
واخوتي ورفاقي دمعهمْ هام

كما زار القاهرة التي كرمته بدورها، وطبعت له ديوانه طبعتين اثنتين، ثم رأى أن يستقر في بربارته، حيث ابتنى لنفسه بيتاً كما أسلفنا، وظل يقيم فيه حتى نكسة حزيران عام ١٩٦٧، هذه النكسة التي خيبت آماله بقومه، وجعلته يشعر بالتشاؤم والسوداوية، كما ذكر في إحدى رسائله على صديقه الحميم، وأخيه في الكفاح القومي، عبد الله يوركي حلاق، فآثر أن يغادر الوطن إلى البرازيل، حيث مكث ثلاث سنوات تقريباً، أجرى خلالها عمليات جراحية... ويبدو أن المرض حرّك أشواقه من جديد إلى البربارة، فقفل راجعاً إليها في تموز ١٩٧٠ ليقضي فيها السنوات الباقية من عمره وليحقق قوله:

بنتَ العروبةِ هيئي كفني
أنا عائدٌ لأموتَ في وطني

ظل القروي يقيم في منزله الذي بناه في (البرباره) وتقوم ابنة خالته سلوى الرحباني بخدمته، وتسافر معه كلما حضر إلى دمشق لقبض مرتبه التقاعدي، فما إن يصل إلى فندق (سميراميس) أو فندق (الميريديان) حتى يتصل بي لأرافقه في جولاته، وتنقلاته لقضاء بعض الأعمال، أو لقاء بعض الأصدقاء، وقد زارني في منزلي أكثر من مرة، وكنت في كل زيارة أدعو أصدقائي من الأدباء والشعراء ليستمعوا إلى شعره الذي كان يمليه من الذاكرة دون الرجوع إلى الديوان، وقد ظل حتى آخر يوم من حياته يتمتع بذاكرة حية وبديهة حاضرة، ويميل إلى الدعابة والمرح..

ولم تستطع السنوات السبع والتسعون التي عاشها أن تحني ظهره، وإن استطاعت أن تثقل سمعه وتحد من حركته ونشاطه.. وظل منتصب القامة، شامخ الرأس، دائم العنفوان حتى وافته المنية في ٢٧ آب عام ١٩٨٤.

ودفن في القبر الذي بناه قرب بيته في البرباره.




كأنها ظلال..

شعر: د. عمر النص

أجلْ! كانت بقايا الأمسِ تهدر في خيالاتي
وكان على الفم الظمآن نهرٌ من حكاياتِ
وكانتْ موجةٌ سوداءَ تصخب فوق مرآتي
وكنت هنا! وكان النجمُ يلهث في متاهاتي
وبحتُ كأنني أشفقتُ أن تنسى ضراعاتي
وقلت: نعمْ! هي الأيّام لم تذهبْ بمأساتي
خيالك لم يزلْ في القلب يسألُ أين منجاتي
وقلت: حقيقةٌ ما كانَ.. أم هذي خرافاتي
تُرى هل تهتدي عيناي في ليل الضلالاتِ
وهذا نجمنا الموعود يهرب من سماواتي
أأحلم بالسنين الخضرِ.. بالطرقِ الظليلاتِ
أأصرخُ؟ إنها الآفاق قد ضاقت بأصواتي
لِنَرْثِ لقاربٍ في البحر لم يظفرْ بمرساةِ
محالٌ أن يفيض الماء في رحم المفازاتِ
محالٌ أن يعود الأمسُ فلنقنَعْ لساعاتِ







خـــذي! إنـــي تـــركتُ الـــريح تـــنزف فـــوق رايـــاتي

فمـــن ذا أغـــلق الأبـــواب فـــي وجـــه الغمامـــاتِ

دعيـــنا نســـأل الإعصـــار هـــل نفـــدتْ شـــراراتي

فـــإني أســـمع الأيّـــام تســـخر مـــن شـــكاياتي..

فقـــلتِ: أجـــلْ.. رأيـــت الـــريحَ تعصـــف بـــالخميلاتِ

رأيـــت الـــريح فـــي عيـــنَيْنِ تفترســـانِ واحـــاتي

عـــثرتُ بهـــا وراء الحـــلم.. فـــي غابـــات غابـــاتي

فخـــلتُ وعيدهـــا المجـــنون يصـــرخ فـــي غيابـــاتي

وعشـــت كنبـــتةٍ صـــفراء تحـــلم بالفراشـــاتِ

تـــرى هـــل تشـــتهي عيـــناك أن تَعْـــرى جـــراحاتي

لنـــبقَ عـــلى دروب الـــليل نحـــلم بالمـــناراتِ

أبعـــد كآبـــة الإخفـــاق نـــرجع للصـــباباتِ

حـــنانك! نـــحِّ هـــذا الكـــأس.. إنـــي عفـــتُ كاســـاتي

ألســـت تـــرى ريـــاح الأمـــس قـــد عـــاثت بجـــناتي

أأنـــت تـــريد مـــن عيـــف أن تـــئدا كآبـــاتي

حيـــاتي قصـــةٌ حمقـــاء.. فاصـــفح عـــن حماقـــاتي

* * *

أجـــل! كـــانت بقايـــا الأمـــس تهـــدر فـــي خيـــالاتي

وكـــان عـــلى الفـــم الظمـــآن نهـــرٌ مـــن حكايـــاتِ..






رسالة الغفران لأبي العلاء المعرّيّ، رسالة لها شهرتها الواسعة وقيمتها الأدبية لأسباب كثيرة منها أن شهرة أبي العلاء، كشاعرٍ فيلسوف، تفوق شهرته كناثرٍ ناقد، وإن باحثين ومؤلِّفين قديرين قد نهضوا قبل الآن، لتحقيق الرسالة، وشرح مفرداتها وحياة أعلامها، فضلاً عن أن بعضهم اتخذ منها أكثر من موضوعٍ موفَّق لأطروحة جامعية ناجحة.

ولكي تكون دراسة رسالة الغفران عملاً أدبياً كاملاً يجب أن تدرس رسالة (ابن القارح) التي لولاها لما صنَّف أبو العلاء (رسالة الغفران) وهذا ما ذكره المحامي فوزي العطري الذي قام بتحقيق هاتين الرسالتين.

فمن هو ابن القارح..؟؟ وما هي رسالته..؟؟

ومن هو أبو العلاء المعري وما هو مضمون رسالته ..؟؟ هذا ما سنتعرض له في هذا التحقيق.

ابن القارح

هو علي بن منصور بن طالب الحلبيّ، ويكنى أبا الحسن ويلقب بـ (دوخلة)، ويعرف (بابن القارح)، من المرجَّح أنه ولد في حلب عام ٣٥١ هـ، وتوفِّي في الموصل عام ٤٢١ هـ، كان أديباً وشاعر عباسيٌّ، عرف بأدبه وطراوة شعره، عاصر أبا العلاء، وقد قال عنه ابن عبد الرَّحيم: "هو شيخ من أهل الأدب، شاهدناه ببغداد راويةً للأخبار، حافظاً لقطعة كبيرةٍ من اللغة والأشعار، قؤوماً بالنَّحو.."

وقال عنه أيضاً: "شعره يجري مجرى شعرِ المعلمين، قليل الحلاوة، خالٍ من الطَّلاوة"

أمـا عـن الرسالة التي عرفت باسمه والـتي رغـب فيها أن يتعرَّف إلى إمام الشِّعر والفكـر فـي عصره – أبي العلاء المعري – شأنه شأن أيَّ كاتب يروقه أن يُطْلِعْ المشاهير عـلى آراءه، وأن يَطَّـلع على آراء المشاهير فيه، فكانت النتيجة التي لم يتوقعها ابن القارح ألا وهي (رسالة الغفران) بقسميها، وقد أملاها أبـو العـلاء، وهـو فـي السِّتين من عمره، فضـمَّنها رواية الغفران من جهةٍ، والرد على ابن القارح من جهة أخرى.

أبو العلاء المعري

هـو أحمـد بـن عبد الله بن سليمان التنوخي، ولد في قرية (معرة النعمان) الواقعة قرب مدينة حلب عام ٩٧٣م، وتوفي فيها عام ١٠٥٧م. وقد تحدر من أسرة كريمة الأصول، وعـلى الرغم من ترف العيش والعناية الكبيرة الـتي حظي بها، إلا أنه أصيب بالجدري وهو في الرابعة من عمره، فعميت يُسراه، وأسدلت غشاوة بيضاء على يمناه، فابتلى بعمى البصر، لكن إصابته لم توقف طموحاته ورجاحة عقله، فقـد حرص أبو العلاء في حله وترحاله على الاسـتفادة من كنوز الفكر العالمي، فاطلع على عـلوم الـلُّغة، والفقـه، والفلسـفة اليونانية، والـتعاليم الدِّيـنيَّة مـن يهوديـة، ومسيحية، وإسلاميةٍ.

ولأبـي العـلاء عـدة تآليف شعرية ونـثرية، مـنها: الـلزوميات، وسـقط الزّند، والدرعيـات، ورسالة الملائكة، ورسائل أدبية أخـرى يتضمن بعضها وصفاً للحيوان والمآكل والثياب والأماكن وسواها.

أما رسالة الغفران فهي في واقع الأمر رسالتان في رسالةٍ واحدة، الأولى وهي رواية الغفـران، والـثانية هي الرد على رسالة ابن القارح.

الرسالة الأولى وهي (رواية الغفران) نسـجها مـن خيالـه، فرحل إلى الجنان حيث تصور ابن القارح، وقد غُفر له، فإذا هو يسأل الـناجين من الشعراء والأدباء: بم غفر لكم..؟ ثم ينتقل برحلته الخيالية إلى أهل النار فيسألهم بم لم يغفر لكم؟

وأبـو العـلاء يثني، في هذه الرسالة عـلى ابن القارح ثناءً عظيماً، ويُطري رسالته إطراءً لا مزيد عليه، فيقول عنها: ".. وغرقت في أمواج بدعها الزّاخرة، وعجبت من اتِّساق عقودهـا الفاخـرة؛ ومثلها شفع ونفع، وقرب عند الله ورفع.. إلخ".

كمـا كانت رسالته الأولى وصفاً دقيقاً لـلجحيم فهـو يصـور الجحيم بطريقة يتخيل المـرء أن أبـو العلاء قد زار جهنم حقاً وعاد ليحـدّث عـنها، كذلك الحال في وصفه للجنة حيـث يتخيل نفسه ذهب إلى دار الآخرة وسأل الأعشـى بمـا غفـر لـه، فيقول: "كيف كان خلاصـك مـن الـنار، وسـلامتك مـن قبيح الشـنار..؟ فيقول: سحبتني الزبانية إلى سقر، فـرأيت رجلاً في عرصات القيامة يتلألأ وجهه تلألـؤ القمر، والناس يهتفون به من كل أوب: يا محمد يا محمد، الشفاعة الشفاعة..!! نممت بكذا ونممت بكذا.. فصرخت في أيدي الزبانية: يـا محمـد أغثني فإن لي بك حُرمة..! فقال يا عـلي بادره فانظر ما حرمته..؟ فجاءني علي بن أبي طالب، صلوات الله عليه، وأنا أعتل كي أُلقـى فـي الـدرك الأسفل من النار؛ فزجرهم عني، وقال: ما حرمتك، فقلت: أنا القائل:

ألا أيهـذا السـائلي أيـن يمَّمـتْ،

فـإن لهـا فـي أهـل يـثرب موعدا

فـآليت لا أرثـي لهـا مـن كلالـة،

ولا مـن حـفىً، حـتى تلاقي محمدا

ولا تقـربن جـارة إن سـرها

عـليك حـرام، فـانكحن أو تـأبدا

نـبي يـرى مـا لا يـرون، وذكـره

أغـار لعمـري فـي الـبلاد وأنجـدا

وهـنا أغـار فـي معنى غار، إذا أتى الغـور، وإذا صـح هذا البيت للأعشى فلم يرد بالإغارة إلا ضد الإنجاد.

وروي عن الأصمعي روايتان: إحداهما أن أغـار في معنى عدا عدواً شديداً، والأخرى أنه كان يقدم ويؤخر.

ويتابع الأعشى حديثة مع علي كرم الله وجهـه كمـا جـاء في رسالة الغفران فيقول: "فذهـب علي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هـذا أعشـى قيس قد روى مدحه فيك، وشهد أنـك نـبي مرسل. فقال: هلا جاءني في الدار السـابقة..؟ فقـال علي: قد جاء، ولكن صدّته قـريش وحبه للخمر. فشفع لي فأُدخلت الجنة على أن لا أشرب فيها خمراً".

ونذكـر هـنا أن هذا الحديث الذي دار بيـن علي رضي الله عنه والرسول ﷺ هو من نسج خيال أبو العلاء المعري لكنه استطاع أن يحـلق بنا إلى عالم من الصعوبة إدراكه حتى في خيالنا، فقد أوضح من خلال هذا الحديث أن أشياء بسيطة قد يفعلها المرء في حياته تقربه مـن الله عـز وجل، وتكون شافعاً له في دار الآخرة.

ويذهـب بنا أبو العلاء في رحلة خياله لعـالم الجـنة ويضـعنا أمـام حديث دار بينه وبيـن زهير بن أبي سلمى المزنّي فيصف لنا قصـراً في الجنة لزهير بن أبي سلمى مع أن الأخير توفي في الجاهلية فكيف لـه أن يدخل الجنة؟؟

فيقـول فـي رسالة الغفران: "وينظر الشيخ في رياض الجنة فيرى قصرين منيفين، فيقول في نفسه: لأبلغن هذين القصرين فأسأل لمن هما..؟ فإذا قرب إليهما رأى على أحدهما مكـتوباً: هـذا القصـر (لزهير بن أبي سلمى المـزنيّ) وعـلى الآخر: هذا القصر (لعبيد بن الأبرص الأسدي) فيعجب من ذلك ويقول: هذان ماتا في الجاهلية، ولكن رحمة ربنا وسعت كل شـيء، وسـوف ألـتمس لقاء هذين الرجلين فأسـألهما بم غفر لهما. فيبتدئ بزهير فيجده شـاباً كالزهرة الجنية، قد وهب لـه قصر من ونية، كأنه ما لبس جلباب هرم، ولا تأفف من البرم. وكأنه لم يقل في الميمية:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش

ثمانين حولاً، لا أبا لك، يسأم.!

ولم يقل في الآخرة:

ألم ترني عمرت تسعين حجة،

وعشراً تباعاً عشتها، وثمانيا؟

فيقول: جير جير..! أي نعم نعم، أنت أبـو كعب ويجير؟ فيقول نعم. فيقول، أدام الله عـزه: "بـم غفر لك وقد كنت في زمان الفترة والـناس همـل (أي ليس لهم من يرعاهم) لا يحسـن مـنهم العمل، فيقول: كانت نفسي من الـباطل نفـوراً، فصادفت ملكاً غفوراً، وكنت مؤمناً بالله العظيم، ورأيت فيما يرى النائم حبلاً نـزل مـن السماء، تعلق به من سكان الأرض سـلم؛ فعلمت أنه أمر الله، فأوصيت بني وقلت لهم عند الموت: إن قام قائم يدعوكم إلى عبادة الله فـأطيعوه. ولـو أدركت محمداً لكنت أول المؤمنين.

ونسـتنتج من هذه القصة التي رواها مـن خياله أن الأعمال بالنيّات، ومن كان قلبه صـافياً مخلصـاً لله عـز وجل فذلك قد يكون شفيعه يوم القيامة، بإذنه تعالى.

ولأبـي العـلاء موقـف مـع الشعر والشعراء في رسالته الخيالية ولعل حديث أبي

العلاء في رسالة الغفران عن الشِّعر والشُّعراء من ألطف الأحاديث، فهو يعرّف الشعر من حيثُ الفنُّ والتأثير بأنه (كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط، إن زاد أو نقص أبانه الحسّ) ويرى أن العرب هم أشد الناس ميلاً إلى الشعر.

ثم يروي لنا كيف حُسبَ تميم بن أبيّ في بيت شعر قاله في حياته ومن خلال هذا الموقف يصور لنا ببراعة جزء من أهوال القيامة وأن الله لم يكن يوماً ظلاماً للعبيد إنما الإنسان يظلم نفسه بيديه.

وهذا ما جاء في رسالة الغفران:

((فيقول: أيكم تميم بن أُبيّ؟ فيقول رجل منهم: ها أنا ذا. فيقول أخبرني عن قولك:

يــا دار ســلمى خــلاء لا أُكــلّفها

إلاَّ المــرانة حــتى تســأم الديــنا

و(الدينا) هنا يقصد بها المعهود.

مــا أردت بالمــرانة..؟ فقد قيل: إنك أردت اسم امرأة، وقيل: هي اسم ناقة، وقيل: العادة.. فيقول تميم: والله ما دخلت من باب الفردوس ومعي كلمة من الشعر ولا الرجز، وذلك أني حوسبت حساباً شديداً، وقيل لي: كنت فمن قاتل علي بن أبي طالب. وانبرى لي النجاشي الحارثي، فما أفلت من اللهب حتى سفعني سفعات. وأن حفظك لمبقى عليك، كأنك لم تشهد أهوال الحساب، ومنادي الحشر يقول: "أين فلان ابن فلان..؟ والشوس (أي الأقوياء) الجبابرة من الملوك تجذبهم الزبانية إلى الجحيم، والنسوة ذوات التيجان يصرن بألسنة من الوقود، فتأخذ في فروعهن وأجسادهن، فيصحن: هل من فداء..؟ هل من عذر يقام؟ والشباب من أولاد إلا كاس يتضاغون في سلاسل النار ويقولون: نحن أصحاب الكنوز، نحن أرباب الفانية، ولقد كانت لنا إلى الناس صنائع وأيادي فلا فادي ولا معين.

ثم يبدأ أبو العلاء في رسالته بالتنقل بين الشعراء الذين عاشروا عصره وتوفوا فيزورهم. هذا في الجنة والآخر في النار وكان يعتمد على تصنيفهم في النار أو الجنة حسب أعمالهم ويحاورهم في أبيات من الشعر كانوا قد ذكروها في حياتهم السابقة ويأخذ من هذا صحيح قوله في الشعر وما كان يقصد ببعض الأبيات والمعاني فقد حاور في ذلك كل من امرؤ القيس بن حجر، وعنترة بن شداد، وعلقمة بن عبدة، وعمرو بن كلثوم، والحارث اليشكري، طرفة بن العبد، أوس بن حجر، الأخطل التغلبي.. إلخ، فكان يأخذ عنهم صدق القول والمعنى الصحيح لأبيات شعرهم وهذا طبعاً بتصور أبو العلاء وتخيله.

وهاهو يحاور امرؤ القيس بن حجر:

"ويسأل عن امرئ القيس بن حجر، فيقال: ها هو ذا بحيث يسمعك. فيقول: يا أبا هند إن رواة البغداديين ينشدون في (قفا نبك)، هذه الأبيات بزيادة الواو في أولها، أعني قولك:

وكأن ذرى رأس المجيمر غدوة

(ويقصد هنا بالمجيمر مقاطعة خاصة ببني فزازة)

وكذلك:

وكأن مكاكي الجواء

وكأن السباع فيه غرقى

(المكاكي: نوع من الطيور)

فيقول: "أبعد الله أولئك! لقد أساءوا الرواية، وإذا فعلوا ذلك فأي فرق يقع بين النظم والنثر؟ وإنما شيء فعله من لا غريزة له في معرفة وزن القريض، فظنه المتأخرون أصلاً في المنظوم، وهيهات هيهات..!"

فيقول أخبرني عن قولك:

كبكر المقاناة البياض بصفرة

مـــاذا أردت بالـــبكر؟ فقـــد اختـــلف المـــتأولون فـــي ذلـــك فقالوا: البضة، وقالوا: الروضـــة، وقـــالوا: الزهـــرة، وقالوا البردية. وكيـــف تنشـــد: الـــبياضِ، أم الـــبياضَ، أم البياضُ..؟

فيقـــول: "كـــل ذلـــك حســـن، وأختار الـــبياضِ، بالكســـر؛ فيقـــول، فـــرّغ الله ذهنه لـــلآداب: لـــو شرحت لك ما قال النحويون في ذلك لعجبت.

كمـــا أن أبو العلاء تحدث في رسالته الأولى عـــن بعـــض الحيوانات التي تكلمت في دار الآخرة بل تخيل نفسه يحاورها مثل الأسد والذئـــب فيقول: "ويحمٌ، فإذا هو بأسد يفترس مـــن صيران (أي مجموعة من الأبقار) الجنة وحســـيلها، فلا تكفيه هندية ولا هند، أي مائة ولا مائـــتان، فيقـــول في نفسه: لقد كان الأسد يفـــترس الشـــاة العجفاء، فيقيم عليها الأيام لا يطعم سواها شيئاً.

فيـــلهم الله الأسد أن يتكلم، وقد عرف ما في نفسي، فيقول: يا عبد الله، أليس أحدكم فـــي الجـــنة تُقدم له الصحفة وفيها البهط (أي أكلة مكونة من الأرز واللبن والسمن) والطّريم مـــع الـــنهيدة، فيـــأكل منه مثل عمر السموات والأرض، يلـــتذ بما أصاب فلا هو مكتف، ولا هي الفانية؟ وكذلك أنا أفترس ما شاء الله، فلا تـــأذى الفريســـة بظفر ولا ناب، ولكن تجد من اللذة كما أجد بلطف ربها العزيز.

أتـــدري مـــن أنا أيها البزيغ؟ أنا أسد القاصرة التي كانت في طريق مصر، فلما سافر عتبة بن أبي لهب يريد تلك الجهة، وقال النبي ﷺ: (اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك) أُلهمت أن أتجـــوّح له أياماً، وجئت وهو نائم بين الرفقة فتخللت الجماعة إليه، وأدخلت الجنة بما فعلت.

هذا ما جاء في رواية الغفران..

وبدأ ابن القارح رسالته بالتالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم

اســـتفتاحاً باسمه، واستنتاجاً ببركته، والحمد لله المبتدئ بالنعم، المنفرد بالقدم، الذي جـــل عن شبه المخلوقين، وصفات المحدثين؛ ولـــيّ الحسنات، المبرإ من السيئات، العادل في أفعالـــه، الصـــادق فـــي أقوالـــه؛ خالق الخلق ومـــبديه...... كـــتابي، أطال الله بقاء مولاي الشيخ الجليل، ومدّ مدته، أدام كفايته وسعادته، وجعلـــني فـــداءه، وقدمـــني قبله على الصحة والحقيقـــة، وبعد القصد والعقيدة، وليس على مجـــاز اللفظ ومجرى الكتابة، ولا على تنقّص وخلابـــة، وتحـــبب ومســـامحة، ولا كمـــا قال بعضهم وقد عاد صديقاً له: كيف تجدك، جعلني الله فداك وهو يقصد تحبباً، ويريد تملقاً، ويظن أنـــه قد أسدى جميلاً يشكره صاحبه أن نـهض واســـتقل، ويكافـئه عـــليه أن أفاق وابلّ، عن ســـلامة تمـــتمها بحضـــور حضرته، وعافية نظامهـــا بالتشـــرف بشـــريف عزته، وميمون نقيبـــته وطلعـــته،..... وردت حـــلب ظاهرها، حماهـــا الله وحرســـها، بعد أن منيت بربضها بـــالدرخمين وأم حـــبو كـــرى والفتكرين (أي بـــالدواهي الكـــبار)، بـــل رميت بآبدة الآباد، والداهية النآد (أي الشديدة) فلما دخلتها، وبعد لـــم تستقر بي الدار، وقد ذكرتها لفقدان معرفة وجار، أنشدتها باكياً:

إذا زرت أرضـــاً بعـــد طول اجتنابها
فقـــدت حبيـــباً والـــبلاد كمـــا هيـــا

هـــذا بعض مما جاء في بداية رسالة ابن القارح، وصلت الرسالة لأبي العلاء ولأثنى كـــثيراً عـــليها بل اعتبرها من بديع الكلام وأن بهـــا سينال الأجر والثواب بل ذهب في خياله لإعتـــبار الرسالة من الكلم الطيب الذي يرتفع إلى الســـماء فيـــنال فيه الأجر والثواب أو أن يكـــون لـــــه شجرة في الجنة لذيذ اجتناء، كل

شجرة منها تأخذ، ما بين المشرق إلى المغرب، بظل غاط، ليست في الأعين كذات نواط. (وذات نواط هي شجرة كانوا يعظمونها في الجاهلية).. وفي ظل تلك الشجرة، قيام وقعود، وبالمغفرة نيلت السُّعود.

ثم يتوسع أبي العلاء في الحديث عن الشجرة والعلم عند الله كما قال أبو العلاء فيقول عن هذه الشجرة "نحن وهذه الشجرة صلة من الله لعلي بن منصور، نخبأ له إلى نفخ الصور؛ وتجري في أصول ذلك الشجرة أنهارٌ تختلج من ماء الحيوان، والكوثر يمدُّ في كل أوان" (ويقصد هنا بعلي بن منصور) ابن القارح الذي يرد أبو العلاء على رسالته وقد بدأ أبو العلاء عند استلام الرسالة بالتالي:

"وقد وصلت الرسالة التي بحرها بالحكم مسجور، ومن قرأها لا شك مأجور، إذا كانت تأمر بتقبل الشر، وتعيب من ترك أصلاً إلى فرع، وغرقت في أمواج بدعها الزاخرة،........ والفيتها مفتتحة بتمجيد، صدر من بليغ مجيد، وفي قدرة ربنا – جلّت عظمته – أن يجعل كل حرف منها شبح نور، لا يمتزج بمقال الزور؛ يستغفر من أنشأها، إلى يوم الدين، ويذكره ذكر محب خدين. ولعله، سبحانه، قد نصب لسطورها المنجية من اللهب، معاريج من الفضة، أو الذهب، تعرج بها الملائكة، من الأرض الراكدة، إلى السماء، وتكشف سجوف الظلماء".

ويتابع أبو العلاء في رسالته بالرد على الفقرة الأولى لرسالة ابن القارح فيقول: "فهمت قوله: جعلني الله فداءه، لا يذهب به إلى النفاق، وبعُدَ ابن آدم من الوفاق؛ وهذه غريزة خص بها الشيخ دون غيره، وتعايش العالم بخداع، وأضحوا من الكذب في إبداع. لو قالت شيرين الملكة لكسرى: جعلني الله فداءك في إقامة أو سرىً، لخالبته في ذلك ونافقته، وإن راقته بالعطل (أي الخلو من الجواهر والحلي) ووافقته، وجرت لهم في ذلك قصص وأنباء، فجعلها في النعمى السنية؛ وعتب في ذلك الأحباء، وجرت لهم في ذلك قصص وأنباء،.... وأما وروده حلب، حرسها الله، فلو كانت تعقل لفرحت به فرح الشمطاء المنهبلة، ليست بالآبلة (أي كثيرة الإبل) ولا المؤتبلة (أي التي تتقن رعاية الإبل) شحط سليلها الواحد، وما هو لحقها جاحد، وقدم بعد أعوام، فنقعت به فرط أُوام (أي الظمأ) ... الخ.

وقد تحدث ابن القارح عن رسالة أعطيت إليه من قبل أبو الفرج الزهرجي، لكي يوصلها إلى نصرة الدولة، لكن رحاله سرقت وفيها الرسالة، فكتب يقول في رسالته إلى أبو العلاء: "كان أبو الفرج الزهرجي كاتب حضرة نصرة الدولة، أدام الله حراسته، كتب رسالة إلي أعطانيها، ورسالة إليه، أدام الله تأييده، استودعنها، وسألني إيصالها إلى جليل حضرته، وأكون نافثها لا باعثها، ومعجلها لا مؤجلها، فسرق عديلي رحلاً لي، الرسالة فيه، فكتبت هذه الرسالة أشكو أموري وأبث شقوري، وأطلعه طلع عجري وبجري (أي الحسنات والسيئات، ما خفي منها وما بان)، وما لقيت في سفري من أُقيوام يدّعون العلم والأدب، والأدب أدب النفس لا أدب الدرس، وهم أصفار منها جميعاً، ولهم تصفيحات كنت إذا رددتها عليهم، نسبوا التصحيف إلي، وصاروا ألباً علي."

فرد أبو العلاء على رسالة ابن القارح بالقول: "وأما أبو الفرج الزهرجي فمعرفته بالشيخ تُقسم أن للأدب حليف، وللطبع الخيّر أليف. ووددت أن الرسالة وصلت إلي، ولكن ما عدل ذلك العديل، فبعد ما تغنى هديل، هلا إقتنع بنفقة أو ثوب، وترك الصحف عن نوب..!؟ فأرب من يديه، ولا اهتدى في الليلة بفرقديه. لو أنه أحد لصوص العرب الذين

رويت لهم الأمثال السائرة، وتحدثت بهم المنجدة والغائرة، لما اغترفت ما صنع بما نظم، لأنه أفرط وأعظم، أي أتى عظيمة، وبتك من القلائد نظيمة. وقد وفق أبو الفرج وولده، وصار كالـلجة ثمده، لما درس عليه الكتب، وحفظ عنه ما يكون الترتب، فسلم العاتكة إلى القاري، والنافجة (أي وعاء الطيوب) إلى المرء الداري، والرمح الأطول إلى ابن الطفيل، والأعنة إلى أحلاس الخيل... إلخ.

كما كتب ابن القارح عن مقتل بشار بن برد فيقول: "وقتل المهدي (هو الخليفة العباسي الثالث) بشاراً على الزندقة، ولما شهر بها وخاف، دافع عن نفسه بقوله:

يا ابن نهيا رأسي عليّ ثقيل
واحتمال الرأسين عبء ثقيلُ
فادع غيري إلى عبادة ربيـ
ـن فإني بواحد مشغول

أما جواب أبو العلاء فكان: "وبشار إنما أخذ ذلك من غيره، وقد روي أنه وجد في كتبه رقعة مكتوب فيها: (إني أردت أن أهجو فلان بن فلان الهاشمي، فصفحت عنه لقرابته من رسول الله، ﷺ، وزعموا أنه كان يشارُّ (أي يخاصم) سيبويه، وأنه حضر يوماً حلقة يونس بن حبيب فقال: هل هنا من يرفع خبراً؟ فقالوا: لا . فأنشدهم:

بني أمية هُبوا من رقادكم
إن الخليفة يعقوب بن داود
ليس الخليفة بالموجود فالتمسوا
خليفة الله بين الناي والعود

وكان في الحلقة سيبويه، فيدّعي بعض الناس أنه وشى به".

كذلك تكلم ابن القارح في رسالته عن أشخاص كثر كانت لهم مواقف معه أو روى قصص عنهم، كما أنه كان يسأل في رسالته عن تفسير لعدة أمور حدثت مع سواه مثل: المتنبي وهو في السجن وكيف أنه ادعى النبوة حين كشف عن بطنه فأرى أبى الحسن علي بن علي الوزير سلعة في بطنه فقال: هذا طابع نبوتي. كما ذكر كيف أن الجنابي قتل بمكة ألوفاً، وأخذ ستة وعشرين جمل خفاً، وضرب آلهتهم بالنار.. الخ. ثم ذكر في رسالته الحسين بن منصور الحلاج، والرواندي الزنديق، وابن الرومي وتطيره، وذكر قصة اتهام أبي تمام بتركه الصلاة، والمعتصم والمازيار والأفشين، ثم جعفر الذي ظهر في البصرة من يدعي أن جعفر، ابن محمد، عليهما السلام، وأنه متصل به وروحه فيه ومتصلة به.

وتحدث عن صالح بن قدوس وكيف قتله المهدي بعد أن اتهم بالزندقة ليكون رد أبو العلاء بخصوص صالح بن قدوس التالي: "وأما صالح بن عبد القدوس فقد شهر بالزندقة، ولم يُقتل، والله أعلم، حتى ظهرت عنه مقالات توجب ذلك، ويروي لأبيه عبد القدوس:

كم أهلكت مكة من زائر
خربها الله وأبياتها
لا رزق الرحمن أحياءها
وأشوت الرحمة أمواتها

(وهنا أشوت بمعنى أخطأت) وقد كان لصالح ولد حبس على الزندقة حبساً طويلاً،...... وأما رجوعه عن الزندقة لما أحس بالقتل، فإنما ذلك على سبيل الختل.

ومما جاء أيضاً في رسالة ابن القارح وصفه لغرام أبي القطران وكيف أن حال ابن

القارح هو نفس حال أبي القطران في خيبة أمله فلقد لقي ابن القارح أبا الفرج الزهرجي بآمد ومعه خزانة كتبه، فعرضها فوجدها ابن القارح كتب يهودية، قد برئت من الشريعة الحنفية لكن أبا الفرج أظهر من ذلك إعظاماً وانكاراً فقال ابن القارح: "أنت على المجرب، ومثلي لا يهرف بما لا يعرف، وابلغ تيقن. فقرا هو وولده وقال: صغّر الخبر الخبر. وكتب إليّ رسالة يقرظني فيها بطبع له كريم، وخلق غير ذميم. (والخبر هنا بضم الخاء: التجربة – والخبر، بفتح الخاء: النبأ الذي تسمعه دون أن تجربه) فيقول: "كان أبو القطران المرار بن سعيد الفقعسي، يهوى ابنة عمه بنجد، واسمها وحشية، فاهتداها رجل شامي إلى بلده، فغمه بُعدها، وساءه فراقها، فقال:

اذا تركت وحشية النجد لم يكن
لعينيك مما تبكيان طيبُ
رأى نظرة منها فلم يملك البكا
معاوز يربو تحتهن كئيبُ
وكانت رياح الشام تكره مرة
فقد جعلت تلك الرياح تطيبُ

فحصلت من الرباح على الرياح، كما حصل لأبي القطران من وحشية.

رد أبا العلاء في رسالته عن كل من كتب عنهم ابن القارح بل أطال في شرح وسرد تفاصيل الأمور التي تعرض لها كل ممن كتب عنهم ابن القارح. ورد عليه بشأن أبو القطران التالي: "وأما أبو القطران الأسدي، وأي البشر من الخطوب مفدي، فصاحب غزل وتبطّل، وتوفر على الخرد (أي العذراء) وتعطل، وما أشك أن الشيخ، أقر الله عين الأدب بالزيادة في عمره، أشد شوقاً إلى أحمد بن يحيى مع صممه،.... وهو ذلك المنهيم إلى وحشية، وإن فقد لبينها الحشية؛ وادكر ثغراً كالإغريض (أي كل ما هو أبيض اللون طري الملمس) وخداً يعدل بلون الإحريض.... ولو هلكت تلك المرأة والمرار يعيش، لعد أنه بتلفها نعيش، لاسيما بعد السن العالية وقوة النفس الآلية (أي البطيئة). ولعل أبا القطران لو متع بهذه المذكورة ما يكون قدره مائة حقبة، على غير الجذع والرقبة، لجاز أن يغرض من الوصال، إذا علم أن حبله في اتصال،.... ولو أصابها العور، بعد أن سكن عينها الحور، لظن أن ذلك نبأ لا يغفر ولا يكفر، فكيف يعتب على الفاهين، وينتقم من القوم الساهين؟.

وفي نهاية سرد ابن القارح لقصص هؤلاء الأشخاص الذين عاصروه أو ربما كان لهم مواقف معه أخذ يشكو في رسالته هموم العصر فيقول: "إن شكوت العصر وأحكامه، وذممت صروفه وأيامه، شكوت من لا يشكي أبداً وذممت من لا يرضى أحداً، شيمته اصطفاء اللئام، والتحامل على الكرام؛ وهمته رفع الخامل الوضيع، ووضع الفاضل الرفيع.... الخ".

وقبل أن يختم رسالته يأخذ عبر من الدنيا فيقول: "وأنا أستعين بعصمة الله وتوفيقه، وأجعلها معيني على دفع شهوتي، وأشكو إليه عكوفي على الأماني، وأسأله فهماً لمواعظ عبر الدنيا، .... ولست أجد منصفاً لي منها، ولا حاجزاً لرغبتي فيها عنها، وأين ودائع العقول وخزائن الإفهام يا أولي الأبصار..؟ صفحنا عن مساويء الدنيا إغماضا لعاجل مونق التنغيص، وتوميء إليه يد الزوال، وتكمن له الآفات. قال كثير:

كأني أنادي صخرة حين أعرضت
من الصم لو تمشي بها العصم زلت

ويختم ابن القارح رسالته على أمل أن يجد الرد عند أبو العلاء فيقول في ختام رسالته: "تمت الرسالة والحمد الله ذي الأفضال، وصلواته على محمد وخيرة الآل. ما فرغت من السوداء حتى ثارت بي السوداء، وأنا أعتذر من خطلٍ فيها، أو زلل، فإنّ الخطأ مع الاعتذار والاجتهاد والتحرّي موضوعٌ عن المخطئ: ((ومن ذا الذي يؤتى الكمال فيكملُ)) قال عمر بن الخطاب: رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي. وأسأله، أدام الله عزه، تشريفي بالجواب عنها، فإن هذه الرسالة، على ما بها، قد استُحسنت وكُتبت عني، وشرّفتها باسمه، وطرّزتها بذكره.

والرسالة التي كتبها الزهرجي إليّ كانت أكبر الأسباب في دخولي إلى حلب. وإذا جاء جواب هذه، سيّرتها بحلب وغيرها إن شاء الله، وبه الثقة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم".

هذه كانت خاتمة الرسالة لابن القارح أما أبو العلاء فبعد أن استكمل الرد على الرسالة ختم رسالته بالقول: "وأنا أعتذر إلى مولاي الشيخ الجليل من تأخير الإجابة، فإن عوائق الزمن منعت من إملاء السوداء، كأنها سوداء التي عناها القائل:

نبئت سوداء تنآني وأتبعها
لقد تباعد شكلانا وما اقتربا
وجدتها في شبابي غير مطلبة،
فكيف والرأس جون، تسعف الطلبا

وأنا مستطيع بغيري، فإذا غاب الكاتب، فلا إملاء. ولا ينكر الإطالة علي، فإن الخالص من النضار العين، طالما اشتري بأضعافه في الزنة من اللجين، (أي الفضة)، فكيف إذا كان الثمن من النفيّات، يوجدن في الطريق مرميات؟ وعلى حضرته الجليلة سلام يتبع سلام قرومه (أي القوي) إفاله، وتلحق بعوذه أطفاله".

لقد تميزت رسالة الغفران بأسلوبها المتشعب الذي يذكرنا بالجاحظ فأبو العلاء يقلب الكلمة الواحدة في وجوه عديدة حتى لا يبقي قولاً لقائلٍ، فهو يعالج النقد الأدبي على أسس صحيحة مدروسة فلا يتعصب لفكرة ولا يتحامل على رأي وإنما يبحث في تجرد وموضوعية ولكن متى تستقم له أسباب السخرية يطلقها قهقهة عالية، ولقد عمد أبو العلاء في الرد على ماجاء في رسالة ابن القارح مفنداً ومحللاً للبدع التي أخذ بها أبناء العصر موافقاً ابن القارح حيناً ومعارضاً له حيناً آخر في شيء من المداورة والغموض لئلاّ يغضب رجال الدين أو رجال الفكر في عصره، ورغم كل وصفه للجنة والنار ولرجاحة فكره وعقله فقد دعا إلى التزام المرء للعزلة إذا قصَّرَ في بلوغِ أمانيه وإنه كان ينظر إلى أسباب الفساد فيجده إلى طبائع البشر المتوارثة والمرأة كانت أداة تناسل فهي الشر كلّه في رأيه ولذلك إلى وأد البنات وقال رأيه في النساء:

ألا إنَّ النساءَ حبالُ غيٍّ
بِهِنَّ يُضَيَّعُ الشَّرَفُ التَّليدُ

وقد أوصى بأن يكتب على قبره:

هذا جَناهُ أبي عليّ
وما جَنَيْتُ على أحَدْ!!




بوركت زوجاً..

شعر: م. عبد الرحيم ضميرية

رسالة حب.. من وراء القضبان.. إلى امرأة فلسطينية..

مــــا الـــــذي أُهـــــدي لبيســـــانَ الغـــــرامْ
والـــــذي فـــــي جعبـــــتي محـــــضُ كـــــلامْ
بعـــــــضُ أشـــــــعارٍ تُعزِّيـــــــني إذا
مــــا ادلَهـــمَّ الخطـــبُ.. أو حـــلَّ الظـــلامْ
سَـــــلوتي فيهـــــا.. وفيهـــــا لهفـــــتي
ودوائـــــي مـــــن فـــــراقٍ وســـــقامْ
وبقايـــــا مهجـــــةٍ عاشـــــقةٍ
شَـــفَّها الوجـــدُ وأضـــناها الغـــرامْ
وســـــباها الحســـــن فـــــي غانيـــــةٍ
خدهــــا الــــوردُ وعيــــناها المــــدام (١)
وليـــــالٍ غِـــــرنَ مـــــن مفـــــرِقِها..
وتمـــنى المســـكُ لـــو فـــي الشَـــعرِ نـــام
والقـــــوامُ الحـــــورُ مـــــا أجملـــــهُ..
أيـــنَ مـــن فيـــنوسَ ذيـــاكَ القـــوام







أيـــنَ مـــن فيـــنوس هـــاتيكَ الـــلمى
عـــندما يَســـلُبكَ الـــلبَّ ابتســـام
بحـــرٌ نـــورٍ حيـــثما أبصـــرتهُ
راعـــكَ الحســـنُ بـــهِ والإنســـجام
وإذا تُصـــــغي إلى مـــــنطقها
خِـــلتَ فيـــروزَ تغـــنِّي للشـــآم
ومواويـــــلَ لـــــزريابَ.. وقـــدْ
(دوزَنـــتْ) أوتارهـــا بـــنتُ الخيـــام
وإذا تغضـــي حيـــاءً فعـــلى
مـــلكاتِ الطُهـــرِ فـــي الدنيـــا السـلام
تـــلكَ بيســـانُ الـــتي أعشـــقها
عشـــقَ بيـــداءَ لـــتهطالِ الغمـــام
عشـــقَ أمٍ طفـــلَها ترضـــعهُ
عشـــقَ طفـــلٍ أمَـــهُ آنَ الفطـــام
عشـــقَ غيـــداءَ لمـــرآةٍ لهـــا..
عشـــقَ مقـــدامٍ لـــرمحٍ لحســـام
عشـــقَ مـــن دنيـــاهُ عشـــقٌ كـــلها
مـــا ســـوى العشـــقِ لديـــه مـــا يـــرام
عاشـــقٌ فـــي صـــحوهِ فـــي نومـــهِ
عاشـــقٌ حـــتى وقـــد صـــلى وصـــام



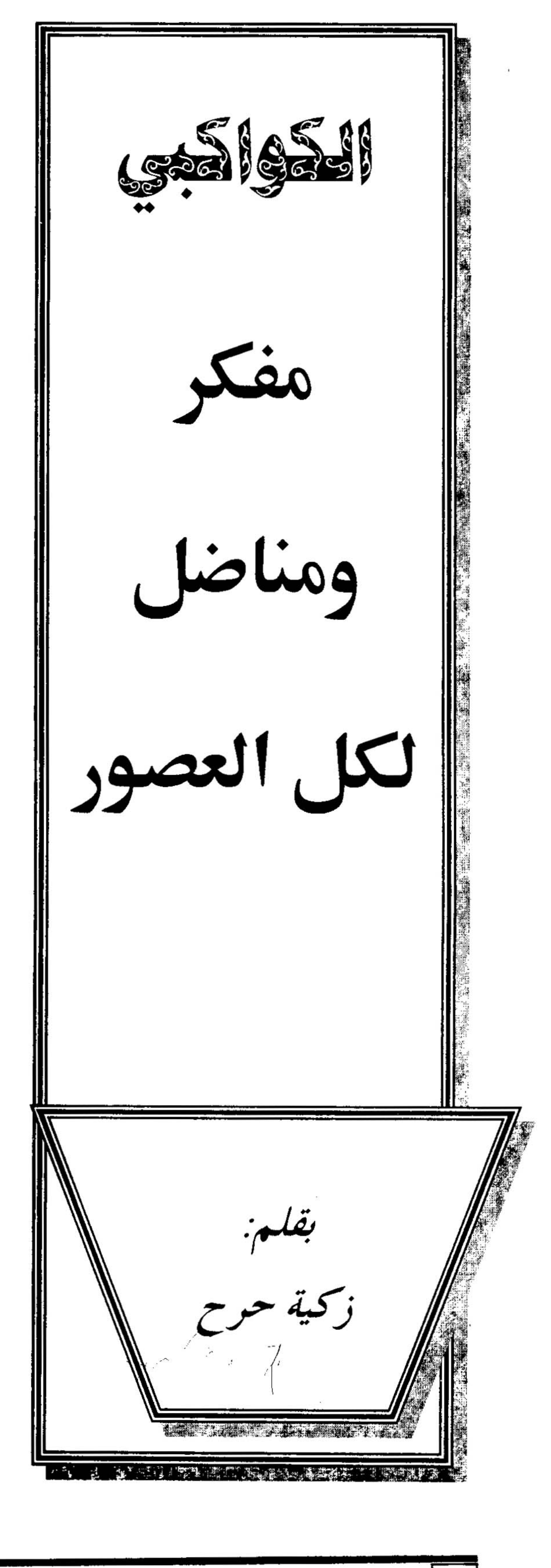



عاشـــقٌ قـــد كـــادَ مـــن يبصـــرهُ
لا يـــرى فـــي بُـــردِهِ إلاَّ العظـــام

*　　*　　*

آهِ يـــا بيســـان مـــا سِـــرُّ الهـــوى؟!
كـــلما زاد الـــنوى زاد الهيـــام
يـــا ســـهاماً - قـــد أصـــابت كـــبداً -
مـــن فلســـطينَ.. فأردتـــه الســـهام
مـــن ربى الفيحـــاء قـــد جـــئتُ وفـــي
جعبـــتي يـــا أخـــتَ أحـــزاني ســـلام
وتـــباريحَ اشـــتياقٍ وهـــوىً
وصـــباباتِ محـــبٍّ مســـتهام
للـــتي مـــا فـــتَّ مـــن عـــزمٍ لهـــا
ضَـــنَكُ العيـــشِ ولا جَـــورُ اللـــئام
لا ولا ســـجنُ حـــبيبٍ حـــبهُ
لـــكِ إن زادَ الـــنوى زاد اضـــطرام
حَفِظَـــتْ عهـــدَ الهـــوى مـــا بينـــنا
وكـــذا عهـــدُ الكـــريم ابـــنُ الكـــرام
بـــاركَ اللهُ بهـــا زوجـــاً كمـــا
بوركـــت للبـــنت أمَّـــاً والغـــلام
ورعاهـــا اللهُ مـــن عـــليائه
والـــذي يـــرعاهُ ربـــي لا يضـــام



ولــد عبد الرحمن بن أحمد بهائي بن محمــد بــن مسعود الكواكبي بحلب في /٢٣/ شوال سنة (١٢٧١ - ١٨٥٥م) لأسرة عربية قديمة في حلب، قيل إنّ جذورها تمتدّ من جهة الأب إلى علــي بن أبي طالب. وتمتدّ من جهة أمّه عفيفة بنت مسعود آل نقيب إلى محمّد بن الباقر بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين الشهيد.

توفّيــت والدتــه ســنة (١٢٧٦هــ ١٨٥٩م) وهو في الخامسة من عمره، فكفلته صفيّة آل نقيب واصطحبته إلى إنطاكية، وهناك تعلّم القراءة والكتابة والتركيّة وحفظ شيئاً من القــرآن الكريم. ثم عاد إلى حلب وأكمل تعليمه مع شيء من الفارسية، مدّة عام تقريباً، ذهب بعــده القــرآن الكريم. ثم عاد إلى حلب وأكمل تعــليمه مــع شــيء مــن الفارسية، مدّة عام تقريــباً، ذهــب بعده إلى إنطاكية ثانيةً لدراسة العــلوم، ثم استقرّ في حلب سنة (١٢٨٢هـ- ١٨٦٥م) فدخــل المدرسة الكواكبيّة التي كانت تتّــبع مــناهج الأزهر في الدراسة، وكان أبوه مديــراً لهــا. وهناك تابع دروسه في الشريعة والأدب والفارســيّة، كمــا درس بعــض علوم الطــبيعة والرياضــة. لكنّه لم يكتف بذلك، بل راح يعــبّ مــن عــلوم السياســة والمجتمع والتاريخ والفلسفة.

وأوّل ما دخل الحياة العمليّة عيّن سنة (١٢٨٩هــ - ١٨٧٢م) محرراً في صحيفة "فــرات" الرســميّة الــناطقة بلســان الحكومة العــثمانية، وكــانت تصــدر باللغتين: العربية والــتركية. واســتمرّ بــالعمل فيها حتى سنة (١٢٩٣هــ - ١٨٧٦م). ولأنه رأى أنّها لا تحقّــق طموحاته فــي إعــلان الحقيقة على الجماهيــر، هجــرها ليصدر صحيفة "الشهباء" الخاصّــة بالاشتراك الصوري مع هاشم العطّار

سنة (١٢٩٤هـ - ١٨٧٧م) وكانت أوّل صحيفة عربية مستقلة تصدر في حلب. ولم يصدر منها غير /١٦/ ستة عشر عدداً فقط، إذ أغلقها والي حلب (كامل باشا) القبرصي، لمّا وجد أنّها تنتقد سياسة السلطنة العثمانية. وربّما أرادت السلطة أن تشغله عن توعية الناس فعيّنته سنة (١٢٩٥هـ - ١٨٧٨م) عضواً فخرياً في لجنتي المعارف والماليّة. لكنّه لم يغير بالمنصب ولم ييأس من الإصلاح فسعى سنة (١٢٩٦هـ - ١٨٧٩م) إلى إنشاء صحيفة "اعتدال" باللغتين: العربيّة والتركيّة، لكنّها، هي الأخرى لم تستمر إذ صدر منها عشرة أعداد ثمّ أوقفتها الحكومة لجرأة صاحبها في انتقاد سياستها.

وحاولت الحكومة إسكاته بالمنصب فعيّنته في لجنة المقاولات والأشغال العامّة، وقلّدته رئاسة قلم المحضرين في الولاية، ثمّ عضويّة لجنة امتحان المحامين. كما عُيّن سنة (١٢٩٩هـ - ١٨٨١م) مديراً فخرياً للمطبعة الرسمية، ثمّ ثامن رئيس لبلديّة حلب.

وفي سنة (١٣٠٠هـ - ١٨٨٢م) توفّي والده ممّا أثّر في نفسه كثيراً، لكنّه لم ينزو واستمر في نصرة المظلومين، وانتقاد السلطنة، واستمرّت الحكومة في إغرائه بالمناصب ففي سنة (١٣٠٤هـ - ١٨٨٦م) عيّنته عضواً في محكمة التجارة، ثم رئيساً لغرفة التجارة بحلب (١٣١٠هـ - ١٨٩٢م)، ورئيساً للمصرف الزراعي، ثمّ رئيساً لكتّاب المحكمة الشرعيّة (١٣١٢هـ - ١٨٩٤م)، وأعادته سنة (١٣١٤هـ - ١٨٩٦م) رئيساً لغرفة التجارة بحلب، ورئيساً للجنة بيع الأراضي الأميرية.

لكنّ أيّاً من تلك المناصب لم يثنه عن عزمه في السلطة القائمة والتصدي للخدمة العامّة إذ فتح مكتباً لنصرة المظلومين حتى لُقّب بأبي الضعفاء ممّا أغضب الولاة فسعوا للإيقاع به، فقد استغلّت السلطة محاولة اغتيال والي حلب (جميل باشا) وألقت القبض على الكواكبي بتهمة التحريض على قتله، ولكنّ ساحته بُرئت وعزل الوالي. ثمّ اتّهمته الحكومة بالاتصال بدولة أجنبية، على لسان والي حلب (عارف باشا)، الذي اتّهمه بالاتفاق مع دولة أجنبية على تسليم حلب، وبإقامة منظّمة سرّية تناوئ نظام الحكم، وحُكم عليه بالإعدام أمام محكمة حلب المتآمرة مع الوالي،÷ لكنّ الكواكبي قدّم تظلّماً ورفض المحاكمة في حلب، كما قامت مظاهرة في حلب تطالب بالإفراج عنه، فاضطرت السلطنة إلى إعادة محاكمته في بيروت، حيث قدّم دفاعاً شخصياً عن نفسه، فبُرّئت ساحته وتبيّن تزوير الوالي الأوراق التي اتهمه بوساطتها، وعزل.

وفي أثناء تلك الأعوام، الصاخبة من حياة الكواكبي، التي تعرّض فيها للظلم والسجن وصودرت ممتلكاته، كان يضع فصول كتابه "أم القرى" الذي قال (كامل الغزّي) أنّه اطلّع عليه في حلب، وقال ابنه (الدكتور أسعد الكواكبي) أنه بيّضه له وهو في حلب. كما كان يضع أفكار كتابه الثاني "طبائع الاستبداد". ولكي يتخلّص من إلحاح السلطة العثمانيّة عليه بالتعامل معها، إذ سلّمته قراراً بتعيينه نائباً شرعياً في قضاء "راشيّا" في ولاية "سورية"، فتظاهر بالموافقة، وقرّر الهجرة إلى مصر سرّاً، بحجّة أنه سيقوم بزيارة إلى "استانبول".

وصل إلى القاهرة في منتصف شهر تشرين الثاني سنة (١٣١٧هـ - ١٨٩٩م)، حيث التقى بالمفكّرين والأدباء، وشارك في الحركة الفكريّة في "مصر"، وهناك ذاع صيته إبان نشره مقالات "طبائع الاستبداد" في

صحيفة "المؤيد" لـ (علي يوسف)، وبعد إصداره كتاب "أم القرى" باسم مستعار هو (السيّد الفراتي)، ثم أصدر "طبائع الاستبداد" تحت اسم (الرحالة ك)، وكتب فصولاً من "أم القرى" في صحيفة "المنار"، سنة (١٣١٨هـ - ١٩٠٠م) بعد حذف اقترحه (محمد رشيد رضا) تحسباً من السلطة.

وفي سنة (١٣١٩هـ - ١٩٠١م) قام برحلة اطلاعية إلى البلاد العربية والإسلامية، ليدرس أحوالها، وهناك دوّن خواطره ليصدرها في كتاب، ولكن وفاته المفاجئة حالت دون ذلك. فقد توفي مساء الخميس في (٦ربيع الأول سنة ١٣٢٠هـ)، الموافق (١٤حزيران عام ١٩٠٢م)، على إثر احتسائه (فنجان قهوة) في مقهى (يلدز) قرب حديقة (الأزبكية) بالقاهرة. وقيل إنّه مات مسموماً على أيدي أعوان السلطان (عبد الحميد الثاني)، الملقب بالسلطان الأحمر، الذي أرسل من دسّ له السم في فنجانه. فبعد أن احتسى القهوة، بنصف ساعة، أحسّ بألم في أمعائه، فانتقل إلى داره، وكان معه ابنه (كاظم) ثمّ، في منتصف الليل، ذهب ابنه لإحضار الطبيب، ولما عاد ومعه الطبيب وجداه ميتاً. وفي اليوم التالي أمر السلطان (عبد الحميد الثاني) أحد أعوانه (عبد القادر القبّاني) صاحب "ثمرات الفنون" التي كانت تصدر في بيروت، أن يقصد محلّ إقامة الكواكبي، ويحرز جميع أوراقه، ويرسلها غليه... وقد فعل ذلك في اليوم التالي لوفاته.

وحدّثني حفيده (الدكتور عبد الرحمن الكواكبي) أنّ مخطوط "طبائع الاستبداد" المعدّل رماه عمّه (كاظم) في صندوق القمامة فلم يُعثر عليه، وأحضره معه بعد انتهاء التفتيش ومصادرتهم كلّ ما في البيت من أوراق، من بينها مسودات كتابيه "العظمة لله و صحائف قريش".

حزن الأدباء والمفكرون لفقده ورثاه كثيرون. ومما قاله مصطفى صادق الرافعي:

سلوا حامليه هل رأوا نعشه
ملائكةً من حاربٍ حلف حارب
وهل حملوا التّقوى إلى حفرة الثّرى
وساروا بذلك الطود فوق المناكب
وهل أغمدوا في صدره صارماً إذ
تجرد راع الشرق أهل المغارب
فكم هزّه الإسلام في وجه حادثٍ
فهز صقيل الحدِّ عضب المضارب
أرى حسراتٍ في النفوس تهافتت
لها قطع الأحشاء من كلِّ جانب

ودفن في قرافة باب الوزير على سطح جبل المقطّم، وبعد أربعين عاماً نقلت رفاته في احتفال ديني إلى مقبرة المشاهير في شارع العفيفي بمنطقة باب الوزير، وكتب اسمه وتاريخ وفاته وتاريخ نقله، على صفحة من المرمر، كُتب عليها بيتان لحافظ إبراهيم:

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى
هنا خير مظلومٍ هنا خير كاتب
قفوا واقرؤوا "أمّ الكتاب" وسلّموا
عليه فهذا القبر قبر الكواكبي

هذا ما جاء في كتاب الأعمال الكاملة للكواكبي للدكتور جمال الطحان.




نجوى..

نجوى..

شعر: د. سعاد الصباح

يا أميري أنتَ يا أطـ   هَرُ من طينِ البَشر

أنتَ يا نفحة نورٍ   من إله مُقتَدِر

يا ملاكاً ساحرَ الطَلْـ   عَةِ فتانَ الغُرَر

يا سماءً تزرَعُ الخُضْـ   رَةَ في قلبِ الحَجَر

أنا مِن حُبِّكَ أُخفي   عنكَ آلافَ الفِكَر

في ثَنايا كبرياءٍ   وحَياءٍ وخَفَر

كُلَّما ناجاكَ شعري   بِحَنينٍ مُستَعِر

ذابَتِ الأبياتُ في ثَغـ   رِي والتاع الوَتَر







كلُّ شيءٍ فيكَ حتَّى الـ   نارُ حُلوٌ في السِيَر

أشعِلِ السيجارَةَ الحَسـ   ناءَ يُلهِبُني الشَرَر

واملءِ الجَوَّ دُخاناً   ثُمَّ دعهُ يَنتَشِر

إنَّهُ يملءُ إحسا   سي بإنصافِ القَدَر

إنَّهُ يلمسُ أعصا   بي بِتَيّارِ الخَدَر

إنَّهُ خَمري وكاسا   تي إذا القَلبُ سَكِر

إنَّهُ يكتُبُ لي في   حُبِّنا أحلى السُوَر

إنَّهُ شَلاّلُ ألوا   نٍ وأضواءٍ عَطِر

إنَّهُ في جَدبِ أيّا   مي كَرَشّاتِ المَطَر

تُنبِتُ الشَوقَ ولا تُبـ   قي مِنَ الشَجوِ أثَر

إنَّهُ يرسُمُ لي الفر   دوسَ في أبهى الصُوَر

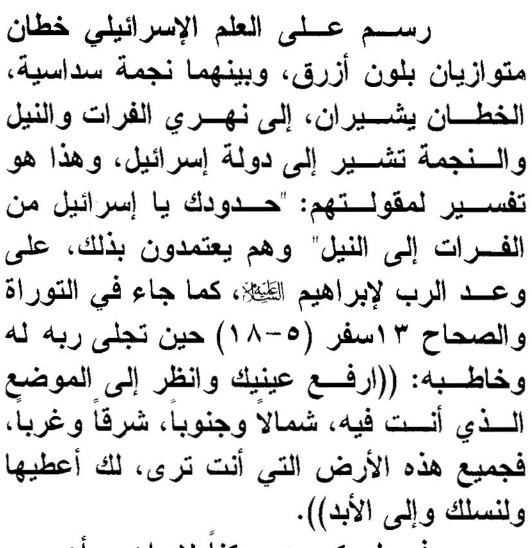
يا أميري إنَّ حُبّي   لكَ طِفلٌ في الصِغَر

كُلَّما أشبعتَهُ وصـ   لا ترى الطِفلَ كَبَر




الأوابد الأثرية تكذّب الافتراءات الإسرائيلية

بقلم: راشد الكيلاني



رسم على العلم الإسرائيلي خطان متوازيان بلون أزرق، وبينهما نجمة سداسية، الخطان يشيران، إلى نهري الفرات والنيل والنجمة تشير إلى دولة إسرائيل، وهذا هو تفسير لمقولتهم: "حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل" وهم يعتمدون بذلك، على وعد الرب لإبراهيم عليه السلام، كما جاء في التوراة والصحاح ١٣سفر (٥-١٨) حين تجلى ربه له وخاطبه: ((ارفع عينيك وانظر إلى الموضع الذي أنت فيه، شمالاً وجنوباً، شرقاً وغربا، فجميع هذه الأرض التي أنت ترى، لك أعطيها ولنسلك وإلى الأبد)).

فهل يكون ممكناً لإبراهيم، أن يرى بعينيه، الأرض الشاسعة الممتدة ما بين نهري الفرات والنيل؟ لقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك، أن كتاب التوراة الحالي، هو كتاب محوّر، لأن معظم ما ورد فيه لم تثبت صحته، لا تاريخياً ولا دينياً ولا منطقياً، وذلك باعتراف العلماء والمؤرخين، بمن فيهم العلماء الإسرائيليون أنفسهم.

فمن جملة هذه الترهات، ما جاء في الإصحاح سفر (٢٠-١)، بأن إبراهيم قد هاجر من أور ماراً بحاران، ثم انحدر إلى مصر، فقال لامرأته سارة: "إني علمت أنك امرأة جميلة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون فيقتلونني ويستبقوك، قولي لهم إنك أختي، فيكون لي خير بسببك وتحيى نفسي بواسطتك". وكان أن أخذ فرعون سارة وصنع لإبراهيم خيراً بسببها، فصار له غنم وبقر وحمير وأتن وجمال وعبيد وإماء، ولكن ضرب الرب فرعون بسبب سارة ضربات كبيرة، فقال فرعون لإبراهيم: "لماذا لم تخبرني بأنها امرأتك، والآن خذها وانصرف"

إن من يقرأ هذا الكلام ويسمع عن هذه التصرفات، المنسوبة إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو نبي كريم بل وجد الأنبياء، يشعر على الفور، بل يتأكد بأن كتاب التوراة هذا

الذي يتحدثون عنه بهذا الشكل، إنما هو كتاب محور، لا صحة لما ورد فيه.

وعندما طرد إبراهيم زوجته هاجر، وابنها الطفل إسماعيل، إلى مكة المكرمة، كما ورد في سفر التوراة (١٤:٢١-٢٢) ((أعطى هاجر خبزاً وقربة ماء وصرفها، فمضت وتاهت، وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء. ولما كبر إسماعيل، أخذت له أمه زوجه من أرض مصر))، فمن أي مصر أتت هذه الزوجة..؟ هل قطعت صحراء سينا، ثم اتجهت جنوباً نحو بئر زمزم في مكة المكرمة؟ أم أنها قد أتت إليهما من قرية مجاورة، علماً أن كلمة مصر تعني بلداً وجمعها أمصار.

جاء في تاريخ ابن الأثير: (كانت قبيلة جرهم، تقيم بواد قريب من مكة، ولزمت الطير الوادي، حين رأت الماء، فقالت جرهم: ما لزمته إلا وفيه ماء، فجاءوا إلى هاجر وقالوا لها: لو شئت لكنا معك فآنسناك، والماء ماؤك، فقالت نعم، وماتت هاجر وتزوج إسماعيل امرأة من جرهم، وتعلم العربية منهم، وكان أول الأمر، يتكلم اللهجة السريانية الشرقية).

أما يوسف عليه السلام، الذي اشتغل وكيلاً لملك مصر، في جمع غلال موسم القمح، فقد أجمع النسابون العرب، كما يقول الطبري في تاريخه (ج١ - ص٢٧١)، على أن ملك مصر أيام يوسف، كان اسمه قابوس بن مصعب بن معاوية، وأن اسم زوجته آسية بنت مزاحم بن عبيد، ولم يكن هؤلاء ملوك مصر وادي النيل، كما أن كلمة فرعون، كانت تطلق على كل من يتزعم قرية، أو عشيرة أو حياً أو عصابة، وكذلك فيما يتعلق بكلمة أو لقب الملك.

طرد نبوخذ نصر الكلداني اليهود من بلادهم إلى بابل عام (٥٨٥) ق.م، بما يسمى بالسبي، وأعادهم كورش الفارسي إلى بلادهم عام (٥٣٩) ق.م، أي أنهم بقوا بالسبي في حدود (٤٦) عاماً، وذلك بفضل محظيته اليهودية إستر. وكانوا قد شكلوا مجموعة من الكهنة يمثلون أسباط بني إسرائيل الـ (١٢)، كل قبيلة يمثلها ستة، لأجل كتابة التوراة، فبلغ مجموعهم (٧٢) كاهناً، وسمي التوراة الذي كتبوه أو ترجموه من اللغة الآرامية كما يدعون، إلى اللغة اليونانية سمي بالسبعوني، أما أصل التوراة الصحيح، الذي يحكي قصة موسى عليه السلام، وجهاده مع قومه، من أجل إيصالهم إلى الإيمان بالله الواحد، فلم يظهروه أبداً، وقد جاء في القرآن الكريم، ما يؤكد أنهم قد بدلوه ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس، تجعلونها قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾ (الأنعام -٩١) ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ (المائدة - ١٥).

وبعد خمسة قرون، من وضع الترجمة السبعونية، أي في القرن الرابع الميلادي، ظهر نص للتوراة بالعبرية، لكن كاتبه كان يونانياً، ولا أحد يعرف من أين أتى به، وبعد ذلك بقرن آخر، أي القرن الخامس الميلادي، ظهر النص اللاتيني المسمى (فولكاتا)، لكنه اعتمد على النص السبعوني. وفي أواخر القرن الثامن الميلادي، ظهر نص بالعبرية يسمى (الماصوري) إلا أن النسخة الأصلية الوحيدة الباقية منه، يعود تاريخها إلى عام (٩٨٥م). لكن هذا النص لم يكشف إلا أواخر القرن (١٩ م) . وهو النص المعمول به اليوم، والمترجم إلى جميع اللغات ومنها العربية والمسمى بالعهد القديم، وقد ألصق بكتاب الإنجيل المسمى بالعهد الجديد، وهو الجزء المسيحي من الكتاب المقدس، وذلك لكي يشترك معه بالقدسية، ولكي يكون التوراة في حرز من الهجمات عليه.

وقد أعلن فجأة في أواسط القرن العشرين الميلادي، عن اكتشاف نصوص للتوراة في كهوف قمران قرب البحر الميت باللغة العبرية على اعتبار أنها هي كتاب

التوراة الأصلي، غير أن الأستاذ زايتلين من فيلاديلفيا، الباحث في الشؤون التوراتية، قال: "إنها تعود إلى القرن العاشر للميلاد، وأن فئة القرائين، هم الذين أخفوها في تلك المغارة، لكي يثبتوا أن حركتهم قديمة".

وواقع الأمر هو أن هذا الكتاب الذي وضعوه وضعاً، قد استند إلى مصدرين أساسين، المصدر الرافدي والمصدر الكنعاني، فدونوا في توراتهم ما قد رأوه أمام أعينهم، خلال فترة السبي، في بابل، فجعلوا كل ذلك منجزات يهودية، إذ كان من الطبيعي أن يعوضوا عن دونيتهم الاجتماعية، باختلاق وجود مدن مسورة لديهم.

إن إبراهيم الذي وجد عام (١٩٠٠ ق.م) ، كان في أور، المدينة الرافدية، لكن الحقائق الأثرية تؤكد أن أور قد دمرت على يد العيلاميين عام (٢٠٠٦ ق.م) أي قبل وجود إبراهيم بمائة وستة أعوام، ولم تقم لأور قائمة بعد ذلك. ووصفت أور في التوراة كذلك بأنها كلدانية، والحقيقة التي أظهرتها التنقيبات الأثرية، هي أن الكلدانيين يعودون إلى منتصف الألف الأول ق.م، بينما دمرت أور عام (٢٠٠٦ ق.م) وبالإضافة إلى ذلك، فإن إبراهيم، لم يذكرعلى الإطلاق، في وثائق المشرق المسمارية، والغزيرة جداً، كما لم يظهر في الوثائق الأثرية المصرية، على غزارتها، ما ينبئ بوجود يهودي في مصر وادي النيل.

دونت الأسفار الخمسة الأولى لكتاب التوراة في بابل، ثم كتبت الأسفار الأخرى حتى حلول القرن الرابع ميلادي، حيث أن التوراة سيثبت، ثم سوف تجري عليه تعديلات، من قبل المنظمات اليهودية والصهيونية العالمية، كلما مر اليهود بأزمات.

فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ويقولون هذا من عند الله ﴾ (س. البقرة).

يقول الباحث الفرنسي جان لوي بيرنار: "إن الغرض من لصوصيتهم، هو تلفيق أكذب تاريخ، يثير أعظم ضجة في العالم، ألا وهو: أكذوبة الشعب اليهودي المختار"

هناك نفي علمي ثابت لثلاثة أمور:

١-لوجود يهودي في بلاد الرافدين، خارج فترة السبي التي دامت نصف قرن فحسب.

٢-لوجود يهودي فاعل في بلاد كنعان (فلسطين)

٣-لوجود يهودي منظم في مصر وادي النيل.

ظهرت اتجاهات بين المؤرخين منذ نهاية القرن (١٩)، أطلق عليها خطاب الدراسات التوراتية، أو الباحثين التوراتيين، إنها في واقع الأمر شبكة متداخلة من الأفكار والتوكيدات، عن وجود إسرائيل القديمة. وعلى الرغم من أن هؤلاء الباحثين قد جاءوا إلى فلسطين، والتوراة في يد، والمجراف في اليد الأخرى، إلا أنهم، حين أفلسوا في إظهار شيء ملموس في الآثار، يؤيد ما تصبو نفوسهم إلى تأكيده، أخذوا يقومون بممارسات ما سمي (الإقناع بالقوة) بقصد تثبيت آرائهم.

وتقوم السلطات الإسرائيلية المهيمنة الآن على فلسطين، بإجراء التنقيبات الأثرية تحت إشرافه حيث تسعى إلى طمس معالم الحضارة الكنعانية (الفلسطينية)، وتتجاهل الدراسات التوراتية تاريخ فلسطين وتسكته، مؤكدة أنه لا وجود له علمياً، إلا كخليفة لتاريخ دولة إسرائيل القديمة ويهودا، أو لفترة الهيكل الثاني اليهودي، وعلى الرغم، من الاستخدام المتقن، لإحصاءات النسب المئوية للأواني الخزفية التي عثر عليها، فإنه لا وجود في سجل هذه الآثار المكتشفة، لشيء يسمح بأن يطلق عليه اسم إسرائيلي في أي موقع من هذه المواقع، كما يقول الباحث والمؤلف (كيث وايتلام) في كتابه (خلق إسرائيل القديمة) ويضيف القول: "وإن التغيرات التي تقرأ بها التوراة المعلومات الأثرية، في مواقع متفرقة

وأعمال المسح المحلية، قد برهنت على أن تلك النماذج المختلفة، التي يأتي بها الباحثون التوراتيون، ليست إلا اختلاقاً، لماض متخيل؟".

ولا تظهر إسرائيل جميع نتائج تنقيباتها الأثرية في فلسطين، بل تتركها طي الكتمان، وذلك تمشياً مع اتجاهات الدراسات التوراتية، التي تطالب بأن يكون ماضي فلسطين التاريخي جميعه، متمشياً مع مصلحة إسرائيل القديمة، على الرغم، من أن نتائج هذه التنقيبات، خلال القرن العشرين، قد رسخت الشك لدى علماء الآثار، في المصداقية التاريخية للروايات التوراتية، عن إسرائيل القديمة التي صوروها، على أنها حقيقة تاريخية لا جدال فيها، كما يؤكدون، على وجود استمرارية تاريخية مباشرة، بين إسرائيل القديمة (مملكة داوود) وبين إسرائيل الحديثة، التي هي إعادة بناء، لما كان موجوداً في السابق، إسرائيل الكبرى التي كانت قوة عظمى، وبالمقابل فهم يعملون، على طمس أي مفهوم مماثل، لأي استمرارية لتاريخ الشعب الفلسطيني.

وتعتقد هذه الزمرة، بأن كتاب التوراة هو مصدر أساسي للتاريخ، وأنه بمثابة سجل تاريخي، وبما أنه كتاب ديني مقدس، فإن جميع الوقائع التاريخية التي ترد فيه، لا جدال في صحتها ولا نقاش. وفي الحقيقة والواقع، فإن هؤلاء الباحثين التوراتيين، لا ينقبون عن الآثار بقصد الوصول إلى الحقائق التاريخية، وإنما لتأكيد جذورهم، إنهم يفترضون أن للآثار دوراً رمزياً فحسب، وأنه على الرغم من أنها مصدر مهم للمؤرخ، لكن غيابها بحسب تفكيرهم لا يجب أن يعني نكران الماضي، ومن جملة السبل المختلفة التي يركزون عليها، للدلالة على وجود إسرائيل القديمة، السّعي للمطالبة على الدوام، بأن يكون الزمان والمكان الفلسطينيان، أي تاريخ فلسطين وأرضها، حكراً على إسرائيل القديمة، وأن ليس للفلسطينيين أي نصيب فيها، إنه يعرفهم، دائماً وأبداً، تاريخ إسرائيل، أيا كان الفهم والإدراك لإسرائيل. وأنه لن يكون بالإمكان التفريط، أو التنازل أو التهاون، عن البحث عن إسرائيل القديمة على الإطلاق، لأنها حسب عقيدتهم، هي القوة الدافعة للدراسات التوراتية، وذلك للإيفاء بمطالب اللاهوت المسحي، في بحثه عن جذوره. يقول هيرمان: "إن بإمكاننا رؤية بدايات إسرائيل القديمة، في شمال سورية وفي العراق القديم من جهة، وفي شمال مصر من جهة ثانية، وذلك قبل أن تجد إسرائيل وطناً لها في فلسطين أرض الميعاد، التي هي ملكها الخاص الذي ليس محل نزاع على الإطلاق.

يتكلم هؤلاء الباحثون التوراتيون، عن إمبراطورية امتدت حدودها، من خليج العقبة إلى البحر المتوسط، ومن وادي العريش إلى لبنان وقادش عند منابع نهر العاصي، وهم ينظرون إلى تاريخ عام (١٢٠٠ ق.م)، على أنه الخط الفاصل في تاريخ المنطقة، ومؤشر على الانحطاط الكبير، ثم الغياب اللافت للنظر للسيطرة الإمبريالية العظمى، عند انهيار الإمبراطوريات المصرية والحثية وآشور وبابل وفارس واليونان ثم ما تلى كل ذلك، من نشوء دولة إسرائيل الكبرى، تحت حكم داوود وسليمان إذ أصبحت هي الكيان الذي حدد النطاق الجغرافي لإسرائيل، وأن سكان القرى الفقراء مادياً، الذين كانوا في منطقة المرتفعات في فلسطين، قد سبقوا الحضارات النهرية، في مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين، وأنهم كانوا بمنزلة القوة العالمية العظمى. وكان بن غوريون يردد بأن حدود إسرائيل يجب أن تتضمن، جنوب لبنان وجنوب سورية والأردن وسيناء.

يعلق عالم الآثار والمؤرخ فيليب ديفيس على هذه الترهات بقوله: "إن إسرائيل القديمة المذكورة في الدراسات التوراتية، ما

هي إلا من اختراع عقول هؤلاء الباحثين التوراتيين، الذين يمعنون في الكذب، كما يمعنون في الدس الرخيص، إذ يصورون الفلسطيني القديم والحديث، على أنه (كما عرفوا في قاموس اوكسفورد) الشخص المادي النزعة والفج، وأنه إنسان محدود الأفق، بعيد عن الثقافة الرفيعة، وهم يضربون مثالاً على ذلك، انتصار داوود الصغير الحجم، على جالوت دليات الكنعاني طويل القامة، رغم أن سلاح داوود كان المقلاع، وسلاح جليات الجبار كان عاتياً.

كتب اللورد بلفور، بعد إعلانه لوعده الشهير عام /١٩٧١/ مذكرة قال فيها: "إن القوى الأربع العظمى (ويقصد إنكلترا والولايات المتحدة وفرنسا والاتحاد السوفييتي) ملتزمة بالصهيونية، وسواء أكانت الصهيونية على خطأ أم على صواب، أو كانت شيئاً جيدا أم سيئاً، فإنها متأصلة بعمق في تراث الماضي البعيد، وفي حاجات وآمال المستقبل، إنها أهم بكثير من رغبات الـ (٧٠٠) ألف عربي الذين يقطنون الآن تلك الأرض القديمة، قال عنهم عربا ولم يسمهم فلسطينيين، فالمطلوب هو إلغاء الفلسطينيين من الوجود".

يقول أهاروبي "صحيح أن الكنعانيين كانوا موجودين في فلسطين لمدة تقارب ألف عام، ولكن مع ذلك يجب ألا يتخذوا هذه الأرض وطناً لهم". وبالمقابل فإن الفترة الإسرائيلية في فلسطين، وإن كانت بحدود مائة عام فحسب، فإن الماضي، إما كان ضمن دائرة النفوذ الإسرائيلي أو أن إسرائيل كانت تدعي ملكيته، على أساس أنه (قبل تاريخها) أو أنه كان (تاريخها الأول).

غير أن واقع الأمر يقول كما يذكر (كيث وايتلام) إن تاريخ إسرائيل القديم، يبدو كلحظة قصيرة جدا في التاريخ الفلسطيني الطويل.

يقول عالم الآثار الإسرائيلي زئيف هرتسوج، في مقال نشرته جريدة ها آرتس، بتاريخ ١٩٩٩/١٠/٣، تحت عنوان (الكتاب المقدس، لا إثبات على الأرض) ذكر فيه أن علماء الآثار قد توصلوا بعد (٧٠) عاماً من التنقيبات الأثرية، المكثفة في فلسطين منذ عام /١٨٧٦/م ثم ما بين (١٩٠٧و١٩٠٩) وكذلك ما بين (١٩٥٢و١٩٥٨م)، إلى استنتاج مفاده: "إننا نحن اليهود، لم نهاجر إلى مصر، ولم نحتل هذه الأرض (فلسطين) لأننا لم نعثر على أي شيء في اللقى الأثرية، يدل على وجود امبراطورية لداوود ولا لسليمان، كما هو مذكور في حكايات كتاب العهد القديم، عن آباء شعب إسرائيل وعن غزو أراضي كنعان، وعلى أن مملكتهم كانت ذروة الاستقلال السياسي، والقوة العسكرية والاقتصادية، وعلى أنها قد امتدت من الفرات إلى غزة".

إن هذه المملكة كما يقرر زئيف هرتسوج، كانت في أحسن الأحوال، عبارة عن مملكة قبلية صغيرة، على الرغم من أن وجود المملكة الموحدة، في عهدي داوود وسليمان هو الدعامة الأساسية، لمقولة الحق التاريخي لليهود في فلسطين، وبشكل خاص فيما يتعلق بوجود الهيكل المقدس، الذي منيت بالفشل جميع التحريات الأثرية عنه، تحت الحرم القدسي، وفي سائر الأماكن الأخرى في القدس، وذلك عام /١٩٦٧م/.

يضيف هرتسوج بأن جملة انتقادات قوية، قد قامت في ألمانيا، تشك بما جاء في قصص التوراة التاريخية، وأنه قد تكون هناك اعتقاد راسخ، بأن هذه الأحداث والأوصاف التي وردت في التوراة، قد اختلقت اختلاقاً، وبشكل خاص أن وثائق التنقيبات الأثرية المصرية، والمتوفرة بكثرة، لم تذكر أي شيء البتة، عن وجود بني إسرائيل في مصر، ولا عن أخبار خروجهم منها، لكنها تذكر عادة دخول الرعاة الرحل، إلى الأراضي المصرية، في أوقات القحط، وعند حدوث مجاعات، وأنها كانت تخيم على هوامش دلتا النيل، ثم

تخـرج مـنها عائدة إلى مواطنها، عند انفراج الشدائد.

ويضيف هرتسوج القول، إنه على أثر هـذه الانـتقادات، قـامت أجيال من الباحثين، بـتحريات عـن موقـع جبل سيناء، ومحطات أسـباط إسرائيل في الصحراء، فلم يكتشف ولا موقع واحد، يؤيد الصورة التي رسمتها قصص الـتوراة، على الرغم من تنقيبات الأثريين التي أجـريت فـي الأطراف الأربعة من الصحراء، دون كـلل أو ملل، خلال الفترة من (١٩٦٧-١٩٨٢) إبان احتلال إسرائيل لسيناء.

يقـول هرتسوج: "عن المختصين من الباحـثين الإسـرائيليين، كـانوا يعرفون تلك الحقـائق مـنذ زمـن طويـل، لكن المجتمع الإسرائيلي لا يعرفها".

وتـتعقد الصـورة فـي القدس بشكل أوضـح، كمـا يقـول هرتسـوج، وذلك لأن التنقيـبات الأثـرية، الـتي أجريت في أجزاء واسـعة مـنها، خـلال (١٥٠) عاما، لم يعثر بنتيجـتها إلا عـلى حفنة من الخزف، ويثابر هرتسـوج قـائلاً: "لقد أصبح واضحاً الآن، أن القـدس كـانت أيـام داوود وسـليمان مدينة صـغيرة، ولربما كان فيها حصن صغير، لكنها لم تكن في كل الأحوال، عاصمة للامبراطورية الموصوفة في أسفار التوراة.

إلا أن مؤلفـي الوصـف التوراتي، قد عـرفونا كما يقول، على قدس كانت في أزمان مـتأخرة عـن أزمان بني إسرائيل، فالأسوار والمنشآت والأحياء التي وصفوها في القدس، هـي الـتي أنشئت فيما بعد، لكن كتاب التوراة أسـقطوها على القدس القديمة، التي كانت أيام المملكة المزعومة.

يخـلص هرتسوج إلى الاستنتاج، بأن داوود وسـليمان كانا يحكمان كل واحد منهما مـملكة قبلية، اقتصرت سيطرتها على مناطق صغيرة، داوود في الخليل وسليمان في القدس، وكـانت قـد بدأت مملكة ثالثة تتشكل في جبل السـامرة، كمـا تذكـر قصص التوراة، التي تسميها مملكة شاؤول.

وبعد أن يستعرض هرتسوج مزيداً من الـنماذج الـتوراتية، عن عهد الآباء واحتلال المـدن الكنعانية، وعن بطولات بني إسرائيل، فـي مواجهـاتهم لـلمدن المحصنة، رغم قلة عددهـم مقابل الكثرة الكنعانية، ومآثر إله بني إسرائيل، الذي حارب إلى جانب شعبه، يخلص إلى الاقتـناع، بـل كل ذلك، إنما هو استذكار ديـني خيـالي، ليس له حقيقة واقعية، فيطرح بكـل مرارة السؤال العريض التالي: من نحن إذن؟ وفيمـا يـلي بعض الأجوبة على تساؤل عالم الآثار الإسرائيلي زئيف هرتسوج..

يقـول العالم درايفر الأستاذ في جامعة أوكسفورد: (إن الشعب العبراني هو من أصول عـرقية متـنوعة، تضم عناصر سامية وغير سـامية. وذهب إلى نفس المذهب فيليب حتى في كتابه تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، حيث يذكـر أنهـم جماعـة من الأجانب الأشقياء، المسـتعدين للانضمام إلى أي جيش، لقاء أجر أو بدافع الحصول على الغنائم.

وقـد صدر كتاب للبروفيسور الأمريكي توماس طومسون، أستاذ علم الآثار في جامعة مـاركويت، والمختص بعلم التوراة وذلك عام ١٩٩٢ بعـنوان (الماضـي الخرافي، التوراة والـتاريخ)، ذكـر فيـه اعتماداً على المصادر المكـتوبة، والمكتشفات الأثرية، وأن الأحداث الـواردة فـي التوراة، لم تقع أصلاً وإنما هي نوع من القصص، التي ابتدعها مثقفون يهود، للـتدليل عـلى أفكـار يعتقدونها، وطموحات يرجون تحقيقها، وأنه لا وجود لأي دليل، على أن الأسـرائيليين قـد كـانت لهم مملكة، على الـنحو الذي ترويه التوراة، أو على وجود أي قوة سياسية موحدة متماسكة لهم، هيمنت في السـابق عـلى فلسطين، وشكلت امبراطورية بهـذا الحجم أو على وجود هيكل في أورشليم، ويضـيف "إن هناك شكاً كبيراً وواسع الانتشار

عالمياً، ليس حول تاريخية سفر التكوين فحسب، بل على تاريخية القصص عن موسى ويوشع والقضاة، وسائر الأسفار الأخرى. والاعتقاد السائد كما يقول: هو أن التوراة يحتوي على قصص وحكايات، وأساطير وشعر، لكن لا وجود فيه لمنظور تاريخي موثوق، حول عالم فلسطين القديم، ويمكن وصفه بأنه استحضار لعازف قيثارة أعمى، أو استحضار لملك ميت، وإن ما يحويه يصلح لأن يكون مسرحية خيالية.

يعقب المؤلف طومسون: إن تاريخ فلسطين في ذلك العصر، وحسب نتائج التنقيبات الأثرية، لا يعرفنا إلاّ على أن إسرائيل كانت محمية صغيرة، في المرتفعات التي تقع شمالي أورشليم، ولم يكن بنو إسرائيل، الذين يعيشون هناك، إلاّ مجموعة عشائرية ضئيلة، لا يتجاوز عددها ألفي شخص، يعيشون في دساكر مبعثرة وصغيرة جداً، ويعيلون أناساً يقطنون في المرتفعات، لذا لم يكن من الممكن، والحال كما هي عليه، قيام أي مملكة هناك، لأي شاؤول أو غيره ليصبح ملكاً عليها، لأنه بكل بساطة، لم يكن هناك ما يكفي من الناس، ليكونوا مملكة، وخلاصة القول، كما يستنتج، لم يكن هناك وجود لدولة يهود.

وعلى أثر صدور هذا الكتاب، أقيل المؤلف من عمله في الجامعة عام ١٩٩٢، فهاجر إلى أوروبا، حيث عين أستاذاً في إحدى جامعات الدانمارك، وقد أقر نائب رئيس جامعة ماركويت التي طردته، بالمكانة العلمية التي يتمتع بها الأستاذ طومسون، وأنه يعد من أبرز علماء الآثار، المختصين بالتاريخ القديم في منطقة الشرق الأوسط، لكنه عقب على طرده، بأن الجامعة تحصل على دعم من الكنيسة، وأنه من المهم في نظرها، ليس أن يكون للنصوص والآثار، قيمة تاريخية فحسب، بل أن تتفق أيضاً مع وجهة نظر نواميس العقيدة.

يقول هارولد فيتش، رئيس جامعة بار إيلان الدينية في إسرائيل، (إذا حذفنا البعد اللاهوتي، تتلاشى الصهيونية هباءً منثوراً) ويقول في هذا الصدد البروفيسور يعقوب تالمون، الأستاذ في الجامعة العبرية في إسرائيل (إن الحق اليهودي التاريخي في فلسطين، يفتقر إلى أساس ثابت، إذا أقيصت مسألة الإيمان بالوعد الإلهي، وبفكرة الشعب الذي اختاره الرب، وسيؤدي ذلك حتماً، إلى إظهار اليهود بمظهر الغزاة الفاتحين والامبرياليين).

ويقول الشاعر اليهودي القومي حاييم نحمن بياليك (إن إسرائيل والتوراة شيء واحد).

ويقول مائير كاهانا (لا يمكن التمييز بين الدولة والتوراة، فدولة إسرائيل لم تقم بفضل قرارات الأمم المتحدة، بل بفضل التوراة).

كان اليهود الذين دخلوا في الديانة المسيحية رياءً، كما هو حالهم دائماً، قد حرضوا رجال الدين المسيحيين، على إتلاف جميع الكتب التي ألفت من قبل، وذلك حرصاً على نقاء العقيدة، كما ادعوا، ولم يقتصر ذلك على علم اللاهوت والفلسفة فحسب، بل تعداها إلى كتب التاريخ والجغرافيا، التي هي بيت القصيد، لأن هذا العمل لم يكن القصد منه حرصهم على نقاء العقيدة المسيحية كما ادعوا، بل كان هدفهم هو إخفاء الحقائق الجغرافية والتاريخية للمنطقة، ليغيب كل شاهد، على كذب ما سطرته أيدي كهنتهم في التوراة من ناحية، ولطمس أصل المنجزات العلمية والحضارية، التي تحققت عبر العصور الطويلة في سورية وبلاد ما بين النهرين، ومن هذه المؤلفات التي جرى اتلافها، كتاب التاريخ الذي ألفه المؤرخ السوري أو الفلسطيني الكنعاني الشهير (سكونياتن) الذي عاصر النبي موسى عليه السلام وسجل فيه

أحداث ما سمي بحروب جماعة موسى، على حقيقتها وبالتفصيل.

وواقع الأمر، هو أن هذه العملية، كانت عبارة عن صفقة مزدوجة ومتكاملة، جرت بين الكهنة اليهود، والسلطات اليونانية، التي كانت تحكم سورية وفلسطين في تلك الفترة، أفاد منها اليهود، في إخفاء الوثائق التي كانت تدينهم، وأفاد منها اليونانيون في أنهم نسبوا منجزات الشرق التي أصبحت أساساً لحضارة الغرب، إليهم فيما بعد.

يقول البطريرك أفرام الأول برصوم، في كتابه (اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم السريانية): "كان جدودنا حين اعتناقهم المسيحية، قد ضحوا في سبيلها بأغلى ما عندهم، فأحرقوا كل الكتب والآثار العلمية، خشية أو توقع معالمها الوثنية، أحفادهم في شراكها".

لكن هذا التغيب لفضل بلادنا على العالم، وهذا القلب للحقائق، لم يدوما مدة طويلة، فلا بد للحق أن ينجلي، ولا بد للباطل أن يزهق قل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا (س الإسراء).

فتقدم علم الآثار، قد قام بمهمة كشف الحقائق التاريخية، ومن المسلم به اليوم، أن الآثار التي يخلفها البشر هي الوثيقة الأكثر صدقية، لأنها متروكة بشكل عفوي، ليس فيه كذب ولا تزوير، أما كتابات المؤرخين، فهي معرضة لأن تكون مبالغاً فيها، أو مختلقة من أساسها، وبشكل خاص فيما إذا تعارضت مع الآثار المكتشفة.

يقول المؤرخ الكبير وول ديورانت، في كتابه (قصة الحضارة) "إن الآريين لم يشيدوا صرح الحضارة، لكنهم أخذوها عن بابل ومصر، فاليونانيون لم ينشئوا الحضارة إنشاءً، بل إن ما ورثوه منها هو أكثر مما ابتدعوه، وقد كانوا الوارث المدلل المتلاف، لذخيرة من العلم، مضى عليها ثلاثة آلاف سنة. فإذا درسنا الشرق الأدنى، وعظمنا شأنه، فإننا بذلك، نعترف بما علينا من دين، لمن أشادوا حقيقة، صرح الحضارة الأوروبية والأمريكية".

ويقول كريستوفر دوس، في كتابه (بحوث في الدين والحضارة) "لقد وصلت بابل، إلى درجة من الحضارة المادية، لم يصل إليها غيرها، من مدن آسيا، حتى وقتنا الحاضر".

ويقول في مكان آخر من كتابه: "إن قضيتنا تبدأ من الشرق، لا لأن آسيا كانت مسرحاً لأقدم مدنية معروفة لنا فحسب، بل لأن تلك المدنيات، قد كونت البطانة الأساسية للثقافة اليونانية والرومانية، هاتان الثقافتان اللتان ظن هنري ميين خطأ، أنهما كانتا المصدر الوحيد، الذي استقى منه العقل الحديث".

وينسب إلى أندريه بارو، مدير متحف اللوفر في باريس القول: "إن على كل إنسان متمدن أن يقول: إن لي وطنين، وطني الذي أعيش فيه وسورية".

تقول الباحثة دانييل ستورو: "إن قرية الجرف الأحمر، التي أنقذت آثارها قبل غمرها بمياه سد الفرات، قد عرف أهلها الحبوب البرية الصالحة للغذاء ثم المزروعة قبل ٧٠٠٠ سنة تقريباً، وقد طوروها إلى أن تحولت إلى شكل القمح المستعمل في يومنا هذا".

وقد ثبت أن الكنعانيين، الذين عاشو في تل حلف، قرب الخابور، هم الذين اكتشفوا النحاس، وأبدعوا خليطة البرونز، في أواسط الألف الثالثة ق.م، كما بدأوا باستخدام الحديد منذ أواخر الألف الثانية ق.م.

كما ثبت أن أول صيغة لمعاهدة سياسية، وأول قاموس في التاريخ، قد تم وضعها في إبلا جنوب حلب، يقول عالم الآثار بالوماتييه: "تظهر وثائق مملكة إبلا، وخاصة الأرشيف المركزي، المكتشف في العصر

الملكي، أن سورية قد لعبت في الألف الثالثة ق.م الدور الأول في تاريخ الشرق الأدنى، يشهد على ذلك ما ظهر من ثقافتها وفنونها وتطور آدابها وطراز هندستها، ويضيف الأستاذ ماتييه القول: إن كل ذلك يضفي صفحة ناصعة جداً، على تاريخ سورية".

إنه لمن المعلوم، أن الأقوام الذين هاجروا تباعاً، من شبه جزيرة العرب، وتوطنوا في سورية وبلاد ما بين النهرين، وكانوا يعرفون مرة بالأكاديين ومرة بالعموريين (٣٠٠٠ق.م) وأخرى بالكنعانيين أو افينيقيين، وتارة بالآراميين، وحيناً بالأنباط والغساسنة، ما هم جميعاً إلاّ أقوام عربية قديمة. وهذا هو السبب في أنهم جميعاً قد تمكنوا من الصمود، أمام الهجرات والغزوات الأجنبية، التي هاجمتهم كالحثيين والمغول والتتار والفرس، ثم اليونان والرومان والصليبيين والفرنسيين والإنكليز، فهزمتهم جميعهم، واحتفظت بطابعها العربي، وستهزم الغزاة الجدد بإذن الله.

يعلق الباحث موسكاتي على هذا الواقع بالقول: "إن المناطق الثلاث، الجزيرة العربية وسورية وبلاد ما بين النهرين، تكون وحدة جغرافية متماسكة الأجزاء، وإن جميع الأقوام، الذين مثلوا الأحداث التاريخية، التي جرت عبر الزمن، قد انصهروا بهذه الوحدة الجغرافية بمصير مشترك، بحيث أن أي صدمة تصيب أحد هذه الأجزاء الثلاثة، تمتد انعكاساتها إلى الأجزاء الأخرى.

إن أصل الكتابة يعود إلى الرقم الكتابية المسمارية التصويرية، ذات المقصع الواحد، التي اكتشفت في مملكة ماري بحدود ٣٢٠٠ ق.م، ثم تطورت إلى الكتابة المسمارية الحديثة في مملكة إيبلا بحدود ٢٤٠٠ ق.م، وأصبحت أبجدية مسمارية مختصرة مؤلفة من ٣٠ رمزاً فقط في مملكة أوغاريت بحدود ١٥٠٠ ق.م، فصارت تستطيع التعبير عن أفكار معنوية وأخلاقية، وأعقب ذلك ظهور أبجدية جبيل الفينيقية التي انتقلت من كتابة مسمارية إلى أبجدية مختصرة من /٢٦/ حرفاً وذلك بحدود ١٢٠٠ق.م.

هناك إجماع عالمي، على أن الأبجدية التي وجدت في أوغاريت ثم تطورت في جبيل هي الأم لمعظم الكتابات في الشرق والغرب، وأنها أثمن ما ورثته الحضارة الإنسانية عن الأمم العربية القديمة، وأنها فتح كبير يصنف مع أهم الابتكارات والاختراعات، في تاريخ البشرية.

نقل الآراميون هذه الحروف الأبجدية، إلى آسيا حتى الهند شرقاً، ونقلها أبناء عمومتهم الفينيقيون (الكنعانيون) غرباً إلى أوروبا، بواسطة اليونانيين، الذين قلبوا اتجاهها، فصاروا يكتبونها من اليسار إلى اليمين، لكن حروفهم بجوهرها، هي نفس الحروف التي تعلموها من الفينيقيين، والتي علموها هم بدورهم، إلى الأوروبيين.

يقول المفكر والتر اونج، في كتابه (الشفهية والكتابة) "لقد غيرت الكتابة الوعي، كما لم يغيره أي اختراع آخر، فقد حولت الكلمة المنطوقة، الحادثة في زمن ما، إلى كلمة مرئية على الدوام، فنقلت المعرفة العقلية إلى شكل مادي، هو الكلمة المكتوبة المحسوسة، التي أصبحت غير قابلة للدحض والتكذيب".

كانت المدن في بلاد سورية والرافدين، تشبه مدن اليونان ومدن الرابطة التجارية في إيطاليا، ومدن ألمانيا في عهد النهضة، إذ كان في كل مدينة مجلسان، واحد للشيوخ وآخر للشبان، يقل هنري فرنكفورت: "كان لهذه المجالس حرية غير مألوفة، إذ تتخذ القرارات فيهما بالإجماع وليس بالأكثرية، وكان ذلك في الألف الثالثة ق.م أيام جلجامش".

أما حمورابي المشرع الكبير، الذي كرّس نفسه معلناً لحقوق الإنسان في العالم

وحامياً لها، فقد كشفت شريعته عام ١٩٩٢م، منقوشة على اسطوانة حجرية بازلتية في عيلام، وهي الآن موجودة في متحف اللوفر في باريس.

يقول وول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) "إن هذه القوانين، البالغ عددها /٨٥/ قانوناً، قد رتبت ترتيباً يكاد يكون هو الترتيب العلمي الحديث، إنها لا تقل رقيا عن شريعة أي دولة أوروبية حديثة، وقل أن يجد الإنسان في تاريخ الشرائع البشرية كلها، ألفاظاً أرق وأجمل من الألفاظ، التي يختتم بها هذا البابلي العظيم شريعته.

ويقول وول ديورانت في مكان آخر: "إننا نجد فيما وصل إليه علمنا أن في سومر وأكاد وبابل، كان أول ما أسسه الإنسان من دول وامبراطوريات، وأول نظم للري، وأول استخدام للذهب والفضة، في تقييم السلع، وأول العقود التجارية، وأول نظام للائتمان، وأول قصص للخلق والطوفان، وأن بابل هي التي أنشأت القصص الجميلة الساحرة، التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من قصص أوروبا الدينية، ومن هناك خرجت أول المدارس والمكتبات، وأول الأدب والشعر، وأول الحلي وفنون التجميل، وأول النحت والنقش البارز، وأول القصور والهياكل الدينية، وأول استخدام للمعادن في الترصيع والتزيين، وأول العقود والأقواس في فنون العمران، وأن من بابل جلب اليونانيون الجوالون، إلى دويلات مدنهم، القواعد الأساسية لعلوم الرياضيات، والفلك والطب والنحو وفقه اللغة، وعلم الآثار والتاريخ والفلسفة، وليست الأسماء التي وضعوها للمعادن والأبراج والنجوم، والموازين والمقاييس، والآلات الموسيقية، وللكثير من العقاقير، إلاّ ترجم لأسمائها البابلية.

إن وجود رموز هذه الحضارة، المتمثلة بكنوز متحف بغداد، التي تعبر أبلغ تعبير، عن ماضي هذه الأمة العريق، هو الذي دفع غزاة العراق، لإفساح المجال لانتشار لصوصهم، في أزقة بغداد، يعيثون فيها الفساد، يسرقون ويدمرون رموز حضارتنان التي هي قذى في عيونهم، تؤرقهم وتدمي قلوبهم وتشغل عقولهم. ولا أدل على ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه الطيارون الأمريكيون، يقصفون بغداد بقنابلهم وصواريخهم طلعت المذيعة الأمريكية الصهيونية الحاقدة ميكي حاييموفيتش، على شاشة التلفزيون وهي تطالب هؤلاء الطيارين أن يوجهوا حمولة طائراتهم نحو الآثار العراقية، حسب الخرائط التي زودتهم بها إسرائيل والتي تحدد لهم فيها موقع وجود هذه الآثار.

أما الداعية الأمريكي بيل كريستول فيقول بهذا الصدد: "لا بد من اجتثاث التاريخ، وتجريد العدو (الذي هو نحن) من ماضيه الحضاري"، وهو يدعو من أجل تنفيذ هذه المهمة، إلى القيام بعملية غسل دماغ، منهجي ومستمر، للقضاء على الذاكرة الوطنية، ثم إلى إرسال مفتشين، على غرار مفتشي الأسلحة النووية، للكشف عن أماكن اختباء هذه الذاكرة الوطنية، على أن تكون القوة العسكرية جاهزة للحسم، في الوقت المناسب، وعندئذ سيكون بالمستطاع، ضخ القيم المتأمركة الجديدة فيه، وأن يجعله يقبل بما يفرض عليه، وقد شرح هذه القيم الرئيس بوش الابن في خطابه أمام الكونجرس في ٢٠٠٢/١/٢٩ غداة اجتياح أفغانستان حيث قال: سنقوم بفضل إلهنا، بفرض معتقداتنا الودودة والتحريرية، فمن الآن فصاعداً يحق لكل العالم تناول الخمرة والتدخين وممارسة الجنس السوي والشاذ، بما في ذلك معاشرة القرابة واللواطة ومشاهدة أفلام الجنس الإباحية داخل البيوت، وأن النساء الأفغانيات قد تخلين عن البرقع إلى الأبد، وأن الأفغان أحرار في بلادهم، يفعلون ما يشاؤون، بما في ذلك زراعة الأفيون"...




نجيُّ الحروف..

شعر: حسان الصاري

بعد وعكة صحية عارضة ألمت بالشاعر الصديق د. رضا رجب نشر قصيدةً يذكر فيها ما ألمَّ به. وهأنذا معارضاً ومهنِّئاً بسلامته

سـلاماً عـليكَ رفيـقَ الشـقا
عديـدَ الـنجومِ ورمـلِ الـنَّقا
سـلاماً عـليكَ عـلى مقلـتيكَ
وخـلِّ العـتابَ إلى الملـتقى
أتـدري وأنـتَ حـبيبُ القلوب
بـأنَّ المصـائبَ قـد تُـتَّقى
وأنَّ فـؤادَكَ رغـمَ الصـعاب
يغـذُّ المسـيرَ إلى المـرتقى
تمـادى خفوقـاً فحـار الطـبيبُ
وظـنَّ الظُّـنونَ فمـا وُفِّقـا
وأنـتَ رهيـنٌ بكـفِّ القضـاء
وطـرفُكَ نحـوَ السـما حـلَّقا
تشـدُّ عـليكَ حـبالُ المـنون
وصـوتُكَ أوشـكَ أن يُخـنقا
ولـولا دعـاءٌ خفيـتٌ حـنونٌ
تمسَّـك بالصـبر واسـتوثقا
أضـاء بقلـبكَ عـتمَ الجهـات
وزحـزح عـنكَ الـذي أطـبقا







أضـــاء بقلـــبكَ عـــتمَ الجهـــات
وزحـــزح عـــنكَ الـــذي أطـــبقا
وعـــادت إليـــكَ عـــلى ضـــعفها
دمـــاءٌ تضـــجُّ وقـــلبٌ ســـقى
لمـــات الحـــنينُ وجـــفَّ الـــرحيقُ
وصـــوَّح غصـــنٌ بـــدا مورقـــا

*   *   *

نجـــيَّ الحـــروفِ وأنـــت الوفـــيُّ
وطـــبعٌ بقلـــبكَ أن يعشـــقا
لمـــاذا فـــتحتَ طـــريقَ العـــتاب
وعـــبَّدتَ دربـــاً لـــه ضـــيِّقا
أتـــنوي الـــنزولَ وأنـــت الكـــبيرُ
ومثـــلُكَ أدرى بمـــن لفَّقـــا!
تعَمْـــلَقَ قـــزمٌ فجـــاز الصـــفوفَ
ولـــولا التصـــاغر مـــا عُمْـــلِقا
ولـــولا تهـــتُّكُ ســـتْرِ الضـــمير
لكـــان المهـــرِّجَ والأحمقـــا
عجيـــبٌ زمـــانٌ يـــبيع الـــرجالَ
ويـــبقي المداهـــنَ والأخـــرقا
وأعجـــبُ مـــن ذا زمـــانٌ يضـــيعُ
عشـــقناه حقَّـــاً فمـــا صـــدَّقا
فـــأرخى العـــنانَ لمـــن خانـــه
وصـــفَّقَ فيمـــن لـــه صـــفَّقا
ولـــولا يُقـــال تمـــادى الـــزمانُ
لـــرشَّ الأزاهـــرَ والزنـــبقا







وشـــدَّ علـيـــنا الشـــكيمَ الحديـــدَ
ولـــولا الحيـــاءُ كرهـــنا الـــبقا

* * *

نـبـــيَّ الحـــروف عـــبرتَ الـــزمانَ
وحُـــلْمٌ بقلـــبكَ أن تســـبقا
وأنـــت الجديـــرُ بمـــا تـــرتجي
وحـــقٌّ عـــلى الدهـــر أن يصـــدقا
فـــأنت ويكـــثر فيـــكَ الحديـــثُ
بـــرَزْتَ بـــأحمدَ مَـــنْ حقّقـــا
كشـــفْتَ بشـــرحكَ ســـتْرَ العويـــص
ووضَّـــح رأيُـــكَ مـــا اســـتغلقا
ومـــاذا يهمُّـــكَ إن بربـــروا
وقـــالوا تمصَّـــر أن أعـــرقا
فعـــلمُكَ يـــبقى حديـــثَ الـــزمان
واســـمك زان لـــــه المفـــرقا

* * *

يميـــناً بشـــعركَ بالخـــالدين
بنســـرِ تســـامى ولـــن يـــلحقا
طـــربتُ لشـــعركَ قـــبلَ الســـماع
وعشـــتُ المحـــبّةَ قـــبل الـــلقا
وأعـــلم أنَّـــكَ مـــثلُ الغمـــامِ
وطـــبعُ الغمامـــة أن تدفقـــا
تـــرشُّ الـــدروبَ وتحـــي القـــلوبَ
وأطيـــبُ خمـــركَ مـــا عُـــتِّقا
ففـــضَّ الدنـــانَ فـــنحنِ الظِّمـــاءُ
وخـــلِّ العـــتابَ إلى الملـــتقى!






عبد العزيز الرنتيسي.. عاش ومات من أجل فلسطين

بقلم:
أ. أحمد شوحان

ولد عبد العزيز بن علي بن عبد الحفيظ الرنتيسي عام ١٩٤٧ في قرية (يبنا) بين عسقلان ويافا، على مرمى حجر من تل أبيب، في نفس العام الذي صدر فيه قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية.

هجرة العائلة

ما كاد الرنتيسي يبلغ من العمر ستة أشهر حتى وقعت نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ حيث هاجرة عائلته من قريتها الصغيرة (يبنا) ولجأت إلى قطاع غزة حيث استقرت في مخيم خان يونس للاجئين وكان والده يعيل أسرة كبيرة مؤلفة من عشرة أولاد وثلاث بنات، حيث ذاقت العائلة شظف العيش خلال حياة معيلها، بينما ذاقت الحيف والحرمان بعد وفاته رحمه الله حينما كان الرنتيسي في الصف الثاني الإعدادي. حيث اضطر شقيقه الأكبر للسفر إلى السعودية بحثاً عن عمل يدر له شيئاً من المال لإعالة هذه الأسرة الكبيرة التي عاشت الفقر في أقسى صوره، إذ يتحدث الرنتيسي عن يوم سفر أخيه فيذكر أنه اضطر أن يعطي شقيقه حذاءه الذي كان ينتعله ليذهب به إلى السعودية وعاد هو إلى البيت حافياً.

وكان يعمل وهو طالب ليعيل تلك العائلة الكبيرة.

دراستُهُ

درس الرنتيسي في خان يونس في مدرسة تابعة لغوث اللاجئين ونال الابتدائية

والثانوية عام ١٩٦٥ حيث كان من العشرة الأوائل، وذهب إلى مصر حيث أتم دراسته الجامعية في كلية الطب في جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٢ ثم نال شهادة الماجستير في طب الأطفال.

مقاومتُهُ واعتقالُهُ

منذ أن كان طفلاً كان يرى جنود العدو الصهيوني أعداء له، فهو يشارك في المظاهرات التي تندلع في غزة وخان يونس، وبعد أن تخرج من كلية الطب شارك في أول اصطدام مع جنود الاحتلال عام ١٩٧٦ عندما كان يعمل في مشفى ناصر بخان يونس، وذلك بعد أن منعت قوات الاحتلال الرنتيسي من إكمال دراسته العليا في الإسكندرية، ومع ذلك فقد أتم دراسته وتخرج يحمل الماجستير في طب الأطفال. وعمل مع الشيخ أحمد ياسين في حركة المقاومة الإسلامية (حماس) ومع قيادات هذه المنظمة، وهو الذي صاغ أول بيان للانتفاضة، فكان أول المعتقلين من قادة الحركة حين اشتدت مقاومة الانتفاضة عام ١٩٨٧.

وقد اعتقل للمرة الأولى عام ١٩٨٣ ثم توالت الاعتقالات بعد ذلك. واعتقل في سجون الاحتلال في ١٩٨٨/١/١٥ فبقي فيها /٢١/ يوماً.

وعمل محاضراً في الجامعة الإسلامية في مدينة غزة اعتباراً من عام ١٩٨٦ بعد أن أقصته السلطات الإسرائيلية من عمله في المشفى عام ١٩٤٨، ولم تسمح له بالعودة إليه، ومن خلال هذا العمل استطاع أن يبث أفكاره في الطلاب الفلسطينيين الذي التفوا حوله، ووقفوا إلى جانبه.

كما اعتقل عام ١٩٨٨ لمشاركته في أنشطة معادية للاحتلال الصهيوني، وقد بقي في سجون الاحتلال حتى ١٩٩٥/٩/٤ حيث كان في نفس الزنزانة التي يقيم فيها الشيخ أحمد ياسين.

من طرائف السِّجن

يقول الرنتيسي: ومن الطرائف التي حدثت في هذه الفترة أن شرطياً يهودياً رآني أحمل القرآن وأتصفحه، فسألني: يا دكتور ماذا في كتابكم؟

فقلت: أمورٌ كثيرة.

قال: ماذا يقول أنكم فاعلون بنا؟

قلت: يقول أننا سنذبحكم بعد أن تتجمعوا في بلادنا.

قال: متى يكون ذلك؟

قلت: لا أدري ربما يكون خلال أربعين سنة (كان ذلك عام ١٩٩٠).

فأخذ الشرطي اليهودي يحسب ثم همهم قائلاً: ليس مهماً بالتأكيد سأكون ميتاً.

قلت: وماذا تقول التوراة؟

قال: نفس الشيء، فتجمعنا هنا نهايته الذبح.

ثم استدرك قائلاً: ولكن عندما نُفْسِدْ.

فقلت: سبحان الله كأنكم لم تفسدوا بعد؟؟!!!

وخرج من السجن

وبعد أن خرج من السجن أعيد إليه عام ١٩٩٥ ليقيم في السجن مرة أخرى سنة كاملة.

وقد ظلَّ الرنتيسي حتى آخر لحظة في حياته متمسكاً بخيار المقاومة، ورافضاً لاتفاقية (أوسلو).

وقد مكث في السجن ما مجموعه سبع سنوات في السجون الإسرائيلية، بينما وقف شامخاً مُصِرّاً على تحميل السلطة الفلسطينية مسؤولية اغتيال محيي الدين الشريف أحد قادة (حماس) العسكريين في الضفة الغربية، وعلى إثر ذلك دخل الرنتيسي سجون السلطة الفلسطينية.

لقد صرّح الرنتيسي مراراً بقوله: لا راحة لليهود الغزاة إلاّ خارج فلسطين.

يرفض الضريبة الجائرة

أرهقت حكومة إسرائيل الفلسطينيين بالضرائب الباهظة، وجعلت رواتب الفلسطينيين لا تعادل ثُلُث أمثالهم من اليهود، وحاصرت البُنية الفلسطينية فجعلتها فقيرة بائسة.

لقد بلغت الضرائب التي يدفعها المواطن الفلسطيني ١٨% من مجموع دخله ولاحقت إسرائيل الأطباء العرب ففرضت عليهم ضرائب مرهقة لتهجيرهم من بلادهم وتشريدهم، فقام الأطباء بالإضراب العام في عياداتهم إلاّ حالات الإسعاف والطوارئ، ووقف إلى جانبهم المحامون والمهندسون وبلديّتا غزة وخان يونس وباقي البلديات والجمعيات، استمرت ثلاثة أسابيع سقط فيها شهيد وعدد من الجرحى، ثم أوقفوا الإضراب رأفة بالشعب الفلسطيني المتضرر من هذا الإضراب.

وبعد سنة تقريباً استدعي الدكتور الرنتيسي إلى مقر الضريبة وهدَّدوه بدفعها حالاً، وفي حال عدم دفعه فإن السلطات ستقوم ببيع العيادة في المزاد العلني، فلما استمر رفضه بيعت العيادة بالمزاد واشتراها الحاج صادق المزيني، وأعادها للرنتيسي مشكوراً.

واعتقل الرنتيسي بسبب ذلك وبقي في السجن تسعة أيام راحت الجمعية الطبية بدفع مبلغ الضريبة للسلطات دون علمه للإفراج عنه، وأُفرِج عنه فخرج من السجن.

في مُرجِ الزُّهور

قامت قوات الاحتلال الصهيوني بنقل السجناء الفلسطينيين وإبعادهم إلى جنوب لبنان في مخيم (مرج الزهور) حيث نقلت /٤١٦/ من نشطاء منظمتي حماس والجهاد الإسلامي في ١٩٩٢/١٢/١٧ إلى المخيم الجديد في ظروف جوية قاسية، فعاشوا في العراء بين البرد القارس والثلج الذي يغطي الأرض في تلك المنطقة الجبلية الوعرة بلا طعام ولا فراش فترة ثم جاءتهم الأمداد من أطعمة وألبسة وفراش وخيام وحاجات أخرى من منظمات إسلامية وشخصيات خيرية كثيرة لمساعدتهم على مقاومة الطبيعة القاسية.

كان الرنتيسي يسمي هذا الإبعاد (رحلة العذاب) إنه يتحدث عن تلك الفترة بمرارة مآسيها للصحفيين وغيرهم: عصبوا عيوننا، كبَّلوا أيدينا، نقلونا في باصات لا ندري إلى أين وجهتها، فلا نستطيع في وضع مريح ولا نستطيع النوم، ولم نتناول طعاماً ولا شراباً، ومنعتنا حتى من قضاء الحاجة، وكنا نصلي صلاة فاقد الطهورين، ومرت ست وثلاثون ساعة ونحن على هذا الحال،

ووضعوا في جيب كل منا مظروفاً فيه خمسين دولاراً..

كان الرنتيسي خلال هذه الرحلة الصعبة هو خطيب الجمعة.

وفي هذه الفترة كان الرنتيسي الناطق الرسمي باسم أولئك المبعدين عن وطنهم وأسرهم، فلما انتهت فترة الإبعاد سجنته القوات الإسرائيلية حتى أواسط عام ١٩٩٧. فلما خرج من السجن اعتقلته السلطة الفلسطينية لنشاطه في منظمة لا تعمل تحت قيادة السلطة الفلسطينية ولم يخرج من السجن إلاَّ بعد خمسة عشر شهراً حين توفيت والدته، ثم سجن بعدها ثلاث مرات، وأضرب عن الطعام، ولم يخرج من السجن إلاَّ عندما قصفت قوات الاحتلال السجن وهرب منه الجنود والضباط الإسرائيليون حيث أقام في سجون السلطة الفلسطينية سبعة وعشرين شهراً.

السلطة الفلسطينية والحوار

يعتبر الدكتور الرنتيسي من أشد قادة منظمة حماس وطنية واتخاذاً للقرارات الصارمة في وجه الكيان الصهيوني، وكيف لا؟.. وهو الذي اختار اسم (حماس) لهذه المنظمة يوم تأسيسها.

لقد دعت السلطة الفلسطينية في نيسان عام ١٩٩٧ إلى أول مؤتمر للحوار بين جميع الفصائل الفلسطينية، فعقد في نابلس ورفض الرنتيسي المشاركة في هذا المؤتمر.

وفي شهر آب من نفس العام دعت السلطة إلى مؤتمر آخر للحوار عقد في غزة، فشاركت فيه منظمة حماس والجهاد الإسلامي حيث قال الرنتيسي في هذا المؤتمر: (إن سياستنا هي النضال ضد الاحتلال الاسرائيلي بما لا يفسد العلاقات مع السلطة الفلسطينية، وخلال هذا المؤتمر التقى الرنتيسي مع الرئيس ياسر عرفات وتعانقا، وقد استغلت الدعاية الإسرائيلية هذا اللقاء والعناق فقالت: إن الذي يعانق زعيم حركة حماس لا يمكن أن يكون جاداً في التفاوض على السلام.

لقد قامت إسرائيل بتأسيس أجهزة مخابرات سرية تخدم الكيان الصهيوني كجهاز (السافاك) يتجسس على العرب خارج إسرائيل منذ عام ١٩٤٨.

وجهاز (الشاباك) يتجسس على الفلسطينيين في الضفة والقطاع بعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧ حتى تشكيل السلطة الفلسطينية.

وجهاز (أمان) يعمل على تجنيد العملاء والجواسيس الفلسطينيين لصالح إسرائيل بعد إتفاقية أوسلو.

محاولات اغتياله

رفض الرنتيسي جميع الحلول التي تفرّط ولو بحبة تراب فلسطينية، ورفض وجود دولة يهودية إلى جانب دولة فلسطينية، وكان يؤمن أن فلسطين عربية مسلمة تتعايش فيها جميع الأديان والقوميات، من غير أن تكون

يهودية صهيونية تحت اسم دولة إسرائيل. فقررت إسرائيل ضمن برنامجها التصفوي لقادة حماس والجهاد اغتيال الرنتيسي، فكانت محاولة الاغتيال الأول في ١٥ حزيران عام ٢٠٠٢ حيث نجا بأعجوبة من قصف سيارته بستة صواريخ من طائرة الأباتشي، وقتل في هذه المحاولة إثنان من مرافقيه، وجرح ولده أحمد جراحاً بالغة.

وبعد استشهاد الشيخ أحمد ياسين تولّى الرنتيسي قيادة حماس وأطلق تصريحات في غاية الأهمية وصف فيها الرئيس الأمريكي بوش بعدو الله.

السلطة الفلسطينية وجريمة الاغتيال

لقد كان اغتيال الرنتيسي بعد /٢١/ يوماً من اغتيال الشيخ أحمد ياسين مما أثار حافظة السلطة الفلسطينية وجعل المسؤولين يصرحون للصحفيين أن هذه الجريمة لن تمرّ عبثاً، وأن الفلسطينيين سيردون بكل عنف ضد هذه التصرفات الإسرائيلية الرعناء، طالما الولايات المتحدة تعطي إسرائيل الضوء الأخضر لقتل الفلسطينيين وهدم منازلهم، وطالما أن الصمت العربي يستمر متخاذلاً، وطالما أن أوربا بثقلها تقف صامتة مكتوفة الأيدي أمام (البعبع) الأمريكي الذي يُرغي ويزيد على العرب والمسلمين ويتهمهم بالإرهاب لأنهم يطالبون بحقوقهم.

ولقد أدلى الدتور الرنتيسي بحديث إلى مجلة نيوزويك الأمريكية قال فيه:

إنني أتوقع حرباً شاملة بين فلسطين وإسرائيل في المستقبل القريب.

وهذا التصريح أثار حافظة الإدارة الأمريكية فهي تريد من الفلسطينيين أن يكونوا هنوداً حمراً في فلسطين، وينقلبوا من مواطنين أصحاب أرض ووطن وسيادة إلى رعايا لمستوطنين جاءوا إلى وطنهم من أماكن بعيدة وعديدة من المعمورة، ليكونوا عليهم سادة وأصحاب سيادة، فقد رئيس الحكومة الفلسطينية أحمد قريع قائلاً: (إن عملية الاغتيال نتيجة مباشرة لتشجيع الإدارة الأمريكية وانحيازها الكامل لإسرائيل).

وأشار إلى أن انحياز أمريكا لإسرائيل ينسف فرصة السلام معها.

نفس الكلام كرره وزير الخارجية نبيل شعث، حيث استبعد عملية السلام مع إسرائيل.

وذكر مستشار الرئيس الفلسطيني لشؤون الأمن القومي العميد جبريل الرجوب: (إن الرد الفلسطيني على اغتيال الرنتيسي سيكون مشروعاً).

كما أكد وزير شؤون المفاوضات صائب عريقات أن إسرائيل تتحمل مسؤولية هذه الجريمة النكراء وتبعاتها.

جريمة الاغتيال

عندما استشهد الشيخ أحمد ياسين وقف الدكتور الرنتيسي في حفل التأبين قائلاً: (إن شبح الموت يخيم حولنا جميعاً، سواء بطائرات الأباتشي أم الاغتيال مدى الحياة، وأنا شخصياً أفضل الأباتشي).

بهذه الكلمات رثى الرنتيسي شيخه أحمد ياسين، ورثى نفسه مستقبلاً ولذلك أقدمت إسرائيل على اغتياله بعد اغتيال الشيخ أحمد ياسين.

لقد خرج بسيارته بعد أن كان بين زوجته وعائلته يوم السبت ١٧/٤/٢٠٠٤. فانهالت على سيارته الصواريخ من طائرة أباتشي فمزقت أشلاء القائد الصقر وابنه ومرافقه الخاص.

لقد حزن الشارع الفلسطيني لهول الجريمة التي اقترفتها إسرائيل باغتيال الرنتيسي وعمّ الإضراب الشامل في الأراضي الفلسطينية، وأغلقت المحال التجارية أبوابها وامتنع الطلاب عن التوجه إلى مدارسهم وجامعاتهم، وأعلنت حالة الحداد ثلاثة أيام، وخرجت مئات الآلاف تشيعه إلى مثواه الأخير مردّدة الثأر للرنتيسي.

لقد صرّح رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون بمواصلة سياسة اغتيال قادة المقاومة الفلسطينية وقال: (تخلصنا من القاتل رقم واحد والقاتل رقم إثنين والقائمة ليست بالقصيرة).

لقد اغتالت إسرائيل الشيخ أحمد ياسين بعد عملية أشدود الاستشهادية التي نفذتها حماس، وكتائب شهداء الأقصى داخل ميناء أشدود الخاضع لحماية مشددة. وبعد أقل من شهر قامت إسرائيل بجريمتها الثانية التي استهدفت الدكتور عبد العزيز الرنتيسي.

وقد جاء الآلاف من الفلسطينيين إلى بيت العزاء يقدمون تهاني الشهادة ويعبّرون عن سخطهم للإجرام الصهيوني، كما جاء آلاف الفلسطينيات يقدّمن التهاني لزوجة الرنتيسي وبناته، وهُنَّ يضعن على رؤوسهن الشريط الأخضر وقد كُتِبَ عليه (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله) والذي كثيراً ما كان الرنتيسي يضعه على رأسه.

زوجته والشهادة

الدكتور الرنتيسي متزوج وله خمس بنات متزوجات وولدان هما: محمد وأحمد.

تقول زوجته السيدة (رشا): كان سعيداً على غير عادته، وطوال جلسته معنا قبل دقائق من اغتياله، وكان يردد الأنشودة:

إن تُدخلني ربي الجنة   هذا أقصى ما أتمنى

وقبل دقائق من اغتياله كان الشهيد الدكتور أبو محمد معنا، وكانت ترتسم على وجهه علامات فرح غريبة، جعلتني أُيقّن أن القصف الذي حدث بعد خروجه مباشرة نال منه، وأيقنا أنه استشهد قبل أن يذاع الخبر، وتؤكده وسائل الإعلام.

وقالت: الحمد لله الذي منح زوجي ما كان يتمناه، إنني أقف اليوم موقف فخر واعتزاز في عرس زوجي، إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع وإنا على فراقك يا أبا محمد لمحزونون.

وخاطبت شارون المجرم قائلة: إفرح قليلاً، ولكن لن تكتمل فرحتك، وستبكي كثيراً أنت وشعبك حينما ينقضّ عليك الشعب الفلسطيني بأكمله.




زورق الياسمين..

شعر: نظير جابر

هـــزّي بجــذعِ النخــلة الولــهى إلى قمــر الــنّهارِ
وتفجَّـــري بـــركانَ أحـــلامٍ وآمـــالٍ كـــبارِ
أمســـي مضـــى نُـــتفاً مغمّســـةً بأنفـــاس القفـــارِ
وغـــدي أضـــأتِ لـــه قـــناديلَ الـــتألّقِ والفخـــار
رشِّـــي عـــلى جـرحي ضـــبابَ الوهـــمِ والعـــبق المـــثار
فـــزوارقي تجـــتاح فـــي الظـــلماءِ عاليـــةَ الـــبحارِ
والياســـمينُ يـــرفّ فـــي قلـــبي كزقّـــزقةِ الصِّـــغارِ
أنـــتِ الـــتي رســـمتْ عـــلى مهـــلٍ طلائـــعَ جلّـــناري
أنقذتـــني مـــن نكســـةِ الذكـــرى ومـــن ذلِّ انكســـاري
مـــدِّي يديـــكِ أرَى الحـــليبَ عـــلى عـــناقيدِ انـــبهاري
وسَـــلي شـــيوخ الهـــندِ عـــن صـــبري وعـــن عُـــنْقِ انشـــطاري
كـــنزي أخبِّـــئه لـــليل السَـــعدِ فـــي شـــفقِ المســـارِ
عيـــناكِ تخـــتزنان أطيـــافَ التـــتمزّقِ والـــبهارِ







تعــبَ الـــزمان ومـــا تعـــبتُ مـــن الـــتأوّهِ والعـــثارِ

أعوامـــي الســـبعون أنـــثرها عـــلى شـــفةِ المحـــار

وأحـــومُ فـــوق طـــنافسِ الـــنجوى وعـــربدةِ الـــدُّوار

بيـــديَّ أعتصـــرُ الأســـى مـــن خـــلْفِ زوبعـــتي ونـــاري

وأصـــارعُ الحيـــتانَ فـــي ميـــدان عاصـــفةِ الغـــبارِ

تيهـــي عـــلى كـــل النّســـاءِ وضـــمّخي بالعطـــرِ داري

وتـــلطّفي فمشـــاعري جفّـــتْ عـــلى شـــطّ انـــتظاري

فأنـــا ومـــا مـــلكتْ يـــداي نـــدور فـــي فـــلك المـــدارِ

كـــدمى لـــثغركِ تـــورق الدنيـــا أفـــانين ازدهـــارِ

وتـــزيّن السّـــاحاتُ أحـــرفها بوهـــج الانتصـــار

جـــنّدتُ كـــلّ كتائـــبي لـــلحالياتِ مـــن النّضـــارِ

وغمســـتُ فـــي السّـــهدِ المصـــغّى غـــرتي وغســـلتُ عـــاري

ورســـمتُ فـــوق صـــحائف البشـــرى أكاليـــلي وغـــاري

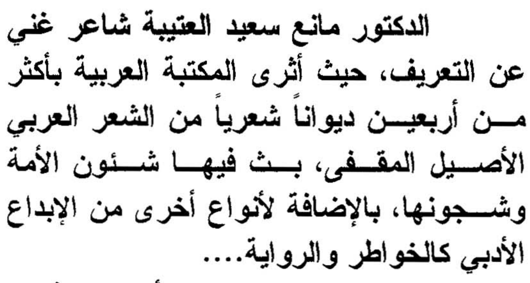
ومشـــتْ عـــلى دربِ الخـــلودِ ملامحـــي ونمـــا بـــذاري

وقتـــلتُ أشـــباحَ الـــرّدى ورفعـــتُ مـــن حـــبّي شـــعاري

حـــبّي لكـــلِّ الـــناسِ، لـــلوطن الموشّـــحِ بـــالإزار

ونهـــلتُ مـــن ينـــبوع آيـــاتي (أبـــي ذرّ الغفـــاري)



الرثاء في شعر الشاعر الدكتور مانع سعيد العتيبة

بقلم:
أحمد سعيد هواش

الدكتور مانع سعيد العتيبة شاعر غني عن التعريف، حيث أثرى المكتبة العربية بأكثر من أربعين ديواناً شعرياً من الشعر العربي الأصيل المقفى، بث فيها شئون الأمة وشجونها، بالإضافة لأنواع أخرى من الإبداع الأدبي كالخواطر والرواية....

هاهو يبث شجونه وأحزانه وفخره باستشهاد البطلة (سناء محيدلي) التي جعلت من جسمها الغض بركاناً انفجر فحول آليات العدو الإسرائيلي وجنوده إلى ركام وأشلاء تبعثرت على أرض الجنوب اللبناني المحتل..

حيث كان من وحي هذا الحدث الاستشهادي العظيم قصيدة رائعة تزيد على الثمانين بيتاً من رفيع الشعر العربي، مما يذكرنا بقصائد الزهاوي، والزركلي، وأبي ريشه وبدوي الجبل.. والقصيدة تستحق دراسة متأنية لوحدها لمعانيها الرفيعة، وألفاظها المطابقة للمعاني والعاطفة الشعرية المناسبة للحدث لاستشهادي الكبير حيث مطلعها الحاذم الصادق القوي:

فلتصمتِ الأبواقُ والخطباءُ
قد آن أن يتكلمَ الشهداءُ

ما أبلغ قول الشاعر وأصدقه، فلتصمت الأبواق والخطباء، فشتان ما بين الأقوال والأفعال، وما بين المداد والدم.

فلنسمع القول المفيد من البطلة الشهيدة (سناء) على لسان الشاعر مانع سعيد العتيبة وذلك كأمانة من بطلة استشهدت في سبيل الوطن والأمة حيث قال:

يا أمتي شعري رسول شهيدة
غنىَّ ليوم زفافها الشعراءُ
كانت عروس بلادها لما مضت
في موكبٍ يرنو له العظماءٌ

وما على الشاعر إلا أن يوصل الوصية التي أوصت بها الشهيدة (سناء) وما أصعبها من أمانة تشغل النفس بأعبائها لثقلها:

جعلت وصيتها لديَّ أمانةً

فأصابني يا أمتي الأعياءُ

إنهم الشعراء الترجمان الأمين لأصحاب النفوس الكبيرة، للشهداء، ومن أولى من الشعراء بحمل هذه الأمانة العظيمة:

إنَّ الأمانة كالجبال ثقيلة

فعلام يقبل حملها الأمناء..؟

بدموع عيني استجارتْ ريشتي

فأجارها دمعي وهلَّ شتاءُ

نعم إن العين لتدمع وأن القلب ليخشع أمام الشهداء، فكيف إذا كانت هذه البطلة (شهيدة) بعمر الورد..؟ فهل نلوم النفس الشاعرية أن بكت منها العين دماً:

سألتها يا ريشتي ماذا جرى..؟

قالت دموعك في العيون دماءُ

وكتبتُ بالدَّم لا الدُّموع رسالةً

منها إليك وللحروف ضياءُ

إنهم الشهداء يقدمون أرواحهم فداءً للوطن والأمة، لا يبتغون جاهاً ولا رفعة دنيوية وإنما مبتغاهم ما وعدهم به الله من مكانة سامية ورضى، أين منها حطام الدنيا:

((ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون))

فهاهي تخاطب أبناء أمتها العربية على لسان الشاعر العتيبة:

يا أمتي آمنتُ منذ طفولتي

أنَّ الذين استشهدوا أحياءُ

وعدُ من الله العليِّ ووعدهُ

دينُ له عند اللقاء وفاءُ

أنا لا أمنُّ عليك هذا واجبي

أدَّيتهُ وليَّ الخلود جزاءُ

إنَّ للشهادة مهابةً وجلالةً تدركها النفوس الكبيرة، وما الشهداء إلا تلك الشموع التي تذوب لتنير الطريق أمام أبناء الوطن ليتابعوا السير في هذا الطريق، طريق العزة والكرامة، فهل أوصل الشاعر العتيبة رسالة الشهيدة (سناء) إلى أبناء أمتها العربية..؟

يا أمتي هذي الرسالة لإبنةٍ

أعطتك ما لم يعطيه الكرماء

منحتْ سراجك من دماء وريدها

زيت الخلود فماله إطفاءُ

فلتقرأ الأجيال مجد سطورها

وليفهم البسطاء والعلماء

إنَّ الكتابة بالدماء ولادةٌ

للفجر، فليستيقظ القراءُ

إن الشهداء يولدون يوم يستشهدون، وهم خالدون في جنان الخلد، وفي قلوب أبناء وطنهم، لأنهم جادوا بأنفسهم في سبيل أوطانهم (والجود بالنفس أقصى غاية الجود) كما يقول الشاعر العربي القديم.

ولنتابع السير برفقة الشاعر مانع سعيد العتيبة في رحلة الأسى والدموع،/ ولكن هذه المرة على رحيل صغيرته (بشاير) التي رُزِءَ بها الشاعر أثر حادث غرقها في حمام

السباحة، ومن وحي هذا المصاب كان ديوانه (بشاير) على اسم الابنة الراحلة.

والعاطفة الأبوية قديمة وقوية، ومن أقدر من الشعراء على تصورها..؟

لقد خلَّد لنا شعرنا العربي أجمل الذكريات عن عالم الحب الأبوي، عبر العصور الخوالي بألوان من المشاعر الزاهية، والمعاني الجميلة في محبة الآباء لأبنائهم..؟ وإذا كانت المواقف القومية تعدُ من بواكير المنجزات البشرية التي عبر بها الإنسان بصيغة أو بأخرى عن حرصه ووفائه لعرضه وأرضه، فإن مواقف الإنسان تجاه معاني ذاته أو رموزها الإنسانية، لا تقل روعةً ووفاءً، ذلك من قبل تنبيه لعاطفة الحنان الكبيرة المبنية على نكران الذات الذي يتوجه به الآباء نحو الأبناء، يقول الشاعر (حطَّان بن المعلى)

وإنما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم
لامتنعت عيني من الغمضي

ففي الأمس أدخل الشاعر مانع سعيد العتيبة السرور والبهجة في نفوس الحشد الكبير من الحضور الذين أمّوا قاعة المكتبة الوطنية في دمشق في مساء يوم ربيعي، فضاقت بهم القاعة على كبرها وسعتها، حيث سمعنا وسعدنا بالقصيدة الرائعة التي خصَّ بها الشاعر ابنته الصغيرة (رشا) التي قدمها الشاعر مع شقيقتها (ميسون) و(هند) لجمهور الحضور وسط تصفيقهم ولكن مما أحزننا هو غياب (بشاير) عن هذه الأمسية اللطيفة حيث طالعنا قصيدة الشاعر الوالد الحزين بهذا الديوان الذي سمي باسمها تكريماً ووفاءً للراحلة (بشاير) التي وصف لنا مكانتها في قلبه:

بشاير كانت كزهرة فُلٍ
شذاها يَضوعُ بأجمل طيب
وكنت إليها أرجّحُ بشوقٍ
لأرتاحَ من طاحنات الحروب
وأنسى لديها جراح فؤادي
وكيد الأعادي وشوك الدروب
بشاير كانت ضياءُ الأماني
ونبض الأغاني فياعينُ ذوبي

لذا كانت القصيدة بكاملها لحناً حزيناً، فنحس بلوعة الشاعر وعمق جراحه في كل كلمة من كلماته بل في كل حرف من حروفها، ومما يضفي على القصيدة ويزيد من تأثيرها في نفسية القارئ صدق العاطفة، وتدفق الشاعرية، حيث اجتمعا فيها بالإضافة لكون الراحلة الصغيرة تحظى لدى والدها بمحبة مميزة لتحبيب نفسها إليه، لذا كان شعره الحزين هذا المؤثر في نفوسنا من وحي ذاك الجرح، حيث أن الألم ينبوع العبقرية:

بشاير ناداكِ قلبي أجيبي
ولا تتركيني لصمت رهيبِ
أنا جئت حتى أراكِ فقولي
كما اعتدت بابا حبيبي
فصوتك كان يريحُ غنائي
ويلمس دائي بكف الطبيب
فكيف يغيب بلا عودةٍ
غناء الحساسين والعندليب

ولا يجد الشاعر العتيبة أمامه إلا الاستسلام للقدر، طالباً من الله تعالى، الصبر والسلوان فهو الرحيم الكريم القادر على تفريج هموم المحزونين فله الحمد والشكر، لأنه عادل ولا اعتراض على قضائه:

فمالي احتجاجٌ على ما أراد
الهي، وهذا الغيابُ يصبي
لكَ الحمد يارب في كل أمرٍ
وأنَّكَ تعلمُ ما في القلوب
وأنت الرحيم وأنت الكريم
وأنت المفرج ليل الكروب
ولولا يقيني بعدلك ربي
لزلزل شُمَّ الجبال نحيبي

لقد رحلت (بشاير) ولم يبقى منها إلا الذكريات حيث يتذكر الأب الملتاع أعمالها البريئة، وأيامها الجميلة معه، حيث كانت تملأ المكان حركة ومرحاً وضحكات وحبوراً، وفي غفلة من العيون غاصت في قاع حمام السباحة:

بشاير كانت غزالي الصغير
وهذا الغزال كثير الوثوب
وفي جبِّ حوض السباحة غاصتْ
على غفلةٍ من عيون الرقيب

فلا حول ولا قوة إلاّ باللّه، قالها الشاعر الوالد ونرددها معه، وحسبنا الله ونعم الوكيل، إنه الإيمان بالله وبقدره الذي به نؤمن فنجد بذلك الراحة التي تنسينا المصاب:

فلا حول عندي ولا قوةً
هو الله حسبي ونعيم الحسيب

وشاعرنا فارس عربي وفي لبني قومه أيا كان موطنهم، يفرح لفرحهم ويتألم ويحزن لحزنهم، لذا فقد آلمه أشد الألم وآساه أشد الأسى موت الشباب العربي المتوثب، الزاخر بالحيوية والنشاط والكفاءة العلمية المتجسدة بالشباب الرائد المظلي المهندس (باسل) حافظ الأسد، الذي اختطفته يد المنون في صباح يوم ضبابي من شتاء عام ١٩٩٤، فيهز هذا الحدث الجلل نفس الشاعر العربي مانع سعيد العتيبة حزناً وألماً، إذ كانت تربط بين الشاعر والفقيد صداقة ومحبة قديمة وقوية، حيث كان الفقيد (باسل) إسماً على مسمى وهو جدير بالمحبة والرثاء:

قد جاءني الخبرُ الأليمُ فزلزلت
نفسي وهلَّ من العيونُ شتاءُ
أيغيبُ باسلنا وتطفأ شمعةٌ
وتطولُ ليلةُ همِّنا السوداء..؟
أسمُ على فعلٍ، شجاعٌ باسلٌ
ولقلَّ ما تتطابق الأسماءُ

لقد كانت الكلمات والألفاظ دالةً دلالة واضحة ومعبرة ومطابقةِ ومتناسقة مع المصاب الأليم:

زلزلتْ، شتاء، تطفأ شمعة، وتطول ليلةٌ، شجاعٌ باسلٌ..همِّنا السوداء.. وفق الشاعر مانع سعيد العتيبة في توظيفها.. ثم تأتي هذه القافية الهمزية المناسبة جداً لموضوع الرثاء فلجأ إليها الشاعر في رثاء سناء وباسل.

لقد كان الفقيد (باسل) فارساً عربياً، يجري في دمه حب العروبة ومجدها الغابر، وتملأ نفسه روح الشباب الوثابة، المفعمة بالعزة والإباء وهذا ما جعله محبوباً من الجميع إنه ابن القائد حافظ الأسد:

منذ كان شبلاً في عرينك بان في
عينيه حبٌ للحمى وولاءُ
فسعى لمجدٍ كنت أنت دليله
في دربه ونما لديك رجاءُ
والمجد في مفهومه قوميةٌ
عربيةٌ وتقدم وبناءُ
غذيته بهوى العروبة فامتطى
فرس الفداء وللجبين علاءُ

إنها الفروسية المتمثلة بالراثي والمرثي فليبثا هموم الأمة العربية بينهما بكل حرية وصراحة مادام في ذلك نفعاً للأمة العربية ورفعةً لمكانتها وقدراتها:

كم جاء في الشام فوق جبينه
رسم السؤال وفي العيون صفاءُ
ليقولَ: أين الشعر كيف هجرتهُ
وعَلام يهملُ أمرنا الشعراءُ
أو ما يَرونَ الداءَ في أفكارنا
أو ما لديهمْ للضلال دواءُ

وأن أول هذه الأمراض التي عشعشت في جسم أبناء الأمة العربية هي:
الخوف، والجبن من قول كلمة الحق، وهما آفة هذه الأمة كما يقول الشاعر:

فأجيبه: ماذا أقولُ وفي فمي
رغمَ الصراحة والفصاحة ماءُ
أ أقولُ آفةُ أمتي في خوفها
والمجدُ لا يسمو له الجبناء..؟

ولكن ماذا نقول للأبناء الذين يتساءلون ببراءة عن الحرية التي قرؤوها في المدارس والمعاهد وضرورتها لبني الإنسان..؟!

خفنا فأغلقنا على أبنائنا
أبوابنا فتساءل الأبناءُ
ما يسرُّ هذا الخوف من حريةٍ
تدرون كم يحتاجها الأحياءُ

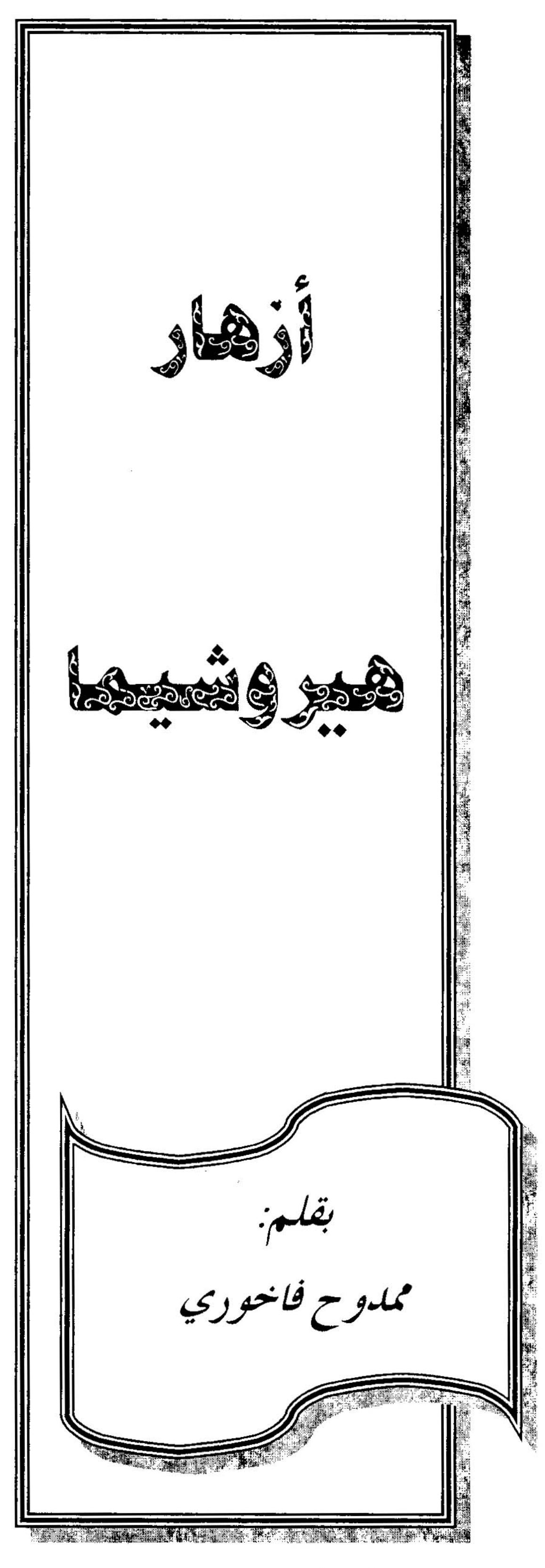
ولعل الفقيد (باسل) كان يدرك ما في نفس الشاعر من غصة وألم عن أشياء لا يريد الإفصاح عنها، فيشجعه الفارس على قوله دون خوف أو وجل:

فيردُّ: قلها، لا تخفْ منْ قولها
ما دام فيها للعليل شفاءُ
إنْ ظلَّ قيدُ الخوف يثقل خطونا
فعلام نزعمُ أننا طلقاءُ..؟

إنها حكمٌ ودررٌ تستأهل أن تكتب بماء الذهب قالها الفارس (باسل) للفارس الشاعر مانع سعيد العتيبة الذي نقلها كأمانة لأبناء الأمة العربية.
لمثل هذه الأفكار الرائعة الصائبة، ولما يتمتع به الفقيد (باسل) من صراحة، ومعرفة لمكان الداء الذي يؤخر تقدم الأمة العربيةً، أحبه الشعب، وبكاه، لأنه كان يرى فيه نفسه:

كان الشبابَ المرتجى ورحيلهُ
قدرُ قبلناهُ حكمة وقضاءُ
لكن سيبقى في صميم قلوبنا
حياً لصوت ندائه أصداءُ
وسيسمع الجيل الجديد نداءه
ليطلَّ صبح الوحدة الوضاءُ

وستبقى الأمة العربية وفية لأبنائها البررة تذكر مآثرها الخالدة بالخير والحب والوفاء متابعة السير على نهجهم حتى تتحقق للأمة العربية وحدتها المنشودة.



فـي السادس من آب، كلَّ عام، تدور طائرة في جوِّ هيروشيما البائسة، وتلقي عليها أزهـاراً من كل شكل ولون.. ثم تولّيٍ مختفية فـي الأفـق الـبعيد، بعـد أن تؤدي مهمتها الإنسانية المشرِّفة.

ولكـن المديـنة تستفيق على جراحها وآلامهـا، فـلا تمتِّع نظراً في زهر، ولا تشغل حاسَّـة بعطـر، ولا تستقبل بحواسِّها المكتوية بلهيب جهنَّم روائح الجنَّة.. فلا مرح اليوم ولا سـرور.. بـل هـو الموت الذي يزحف إليها ويتغلغل في أحشائها ببطء ثقيل..

أجـل.. إنهـا تسـتفيق على جراحها الملتهـبة غير حافلة بهذه الأزهار الاصطناعية ولـم أقـل الصناعية، فهي من الطبيعة ولكنها ليست للطبيعة، لأن الطبيعة هجرت هذا المكان ورحـلت معهـا أزهارهـا الجميلة وأطيارها الوديعة.. وستبقى واقفة من بعيد لتتأمّل صنع الإنسان بأخيه الإنسان..

* * *

لقد كان معروفاً يومذاك أن اليابان قد انـتهى أمرها، وولّى خطرها إلىغير رجعة.. وأنها قادمة على الاستسلام والخضوع، بعد أن كُسِر جناحها الثاني في دولة ألمانيا الهتلرية..

فـلماذا رميُها إذاً بالقنبلة الذرية وهي في حال لا ترجو منها خيراً، ولا تحقق نصراً، ولا تـتقدَّم في شبر من أرض.. ألكي يُفهم أن

هـذه القنبـلة (السحرية) قادرة على أن تقتل الآلاف المؤلفـة، وتحرق كل رابية، وتقطع كل طـريق، وتذكّـر الإنسان بعصر سمُّوه العصر الحجـري، وهو يطلُّ بحواسه جميعاً فلا يرى حجـراً فوق حجر.. ويتساءل: من الذي صنَّف هذه القرون وهذي العصور، وجعل قرناً يمتاز على قرن، وعصراً يتفوّق على عصر؟.

ويتساءل: لماذا؟ ولماذا؟ أليهدّدوا بها جـاراً أقـرب، وحليفاً أنسب؟ أم ليهددوا العالم كـلّه، فـلا اعـتراض ولا حراك، بل خضوع وخنوع، يستوي فيه الشيخ والشابُّ والرضيع، بـل الأجنَّة التي لم ترَ النور بعد، لتستقبل حياة الهون والطأطأة والركوع.

ويـبقى التساؤل مطروحاً بعنف حتى يبـلغ الأمـر غايـته ونهايته، ليسجل التاريخ أكذوبـة جديدة تضاف إلى الأكاذيب الماضية، ولـتقول الشـعوب كلمتها مدويّة صارخة.. لا مكـان اليوم لكل متغطرس صلف، ولكل امتياز يـرفع مخـلوقاً عـلى مخـلوق، وإنما الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لإنسان على إنسـان، ولا لشعب على شعب، ولا لعرق على عرق..

* * *

ويبقى التساؤل ويستمرّ..

ما يُغني هيروشيما، وأختها المنكوبة، ناغازاكي..

ماذا يغنيهما أن تُرمى عليهما الأزاهير والورود، من كل شكل ولون، ما دامت الجراح والآلام باقية تحفر في أجسام الضحايا الأبرياء حفـراً عميقـاً، وتمدُّ لها قبراً متطاولاً سحيقاً، ولكنه قبر يأبى أن يضمَّ عظامها النخرة إلاَّ بعد أن تصـبح تراباً على تراب، وإلاَّ بعد أن تُغطَّى أرضى هيروشيما بتراب نقيّ جديد، تُزرع فيه أزهـار فـريدة جديـدة، ولكن بعد أن يسوَّى الحساب، ويُميَّز بين الأعداء والأحباب، ويَعرف كلٌّ طريقه الآمن في هذه الحياة..

ولا بـد أن يُقـبل فجر إنسانيّ جديد.. تنبـلج فيه أمام شعوب الأرض أضواء ساطعة مـن فجـر الحق، وتزهو أمام أبصارهم رايات زاهيـة مـن وضـح العدالـة، فيهبّون جميعاً كالسـيل، يحطّمـون لـلظالم كل قيد، ويدكُّون للطغاة كلّ صرح، ويجرفون للمجرمين كلّ سدّ مـنيع.. حـتى إذا اندحـرت أمامهم طواغيتُ الشّـرّ، وطُهِّـرت من أرجاسها الأرض، رَفعوا وجوهـهـم إلى السَّـماء فعشـيت عيونـهـم بالنور بعد ظلام، وتحركت دماؤهم بالحياة بعد موت..

* * *

تحيـة لهيروشيما، ولأختها المنكوبة، ولكل شعب منكوب على وجه هذه الأرض..

تحيـة لـك يـا "دوربان" ولكل مدينة تعرف معنى الكفاح، وتأسو غضبَ الجراح..